محمد عبد المنعم خفاجي

صور من الأدب الحديث

الجزء الأول

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا الكتاب بأجزائه العديدة يجمع ألوانا من الصور الجديدة فى الأدب الحديث ، ودراسات موجزة لأشهر رواده ، وآراء عديدة لأعلامه المعاصرين ، ولطائفة كبيرة من أدبائنا الذين يقرأ الناس لهم ، ويسمعون عنهم .

وقد أردت بهذا الكتاب أن أجمع طائفة كبيرة من آراء أدباء مصر كافة فى الأدب الحديث وتطوره لتكون الصورة العامة التى تتضح من خلال هذه الآراء متممة لآرائى التى دونتها فى كتبى : قصة الأدب المعاصر . دراسات فى الأدب والنقد ، رائد الشعر الجديث ، مذاهب الأدب ، فصول فى النقد . قصة الأدب فى مصر ، مع الشعراء المعاصرين

ولست أحب أن أجمع الناس على رأى واحد هو رأيى ، ولا يمكن أن يكون ذلك ، ومن ثم كان لابد لى أن أجمع آراء الأدباء والنقاد فى الأدب الحديث ، لتكون بمثابة عرض عام لخلاصة ماجد فى محيطنا الأدبى من مذاهب ونزعات فى الأدب ودراسته ونقده .

محمد عبد المنعم خفاجى

ألوان من المقالة الأدبية

أرخوا الأدب الحديث (١)

بين يدى كتاب فى تاريخ الأدب الفرنسى وضعه هنرى كلووار فى جزءين يحتويان على ألف وأربعمائة صفحة تناول فى أولهما الأدب الفرنسى منذ سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٩١٤ وفى الثانى منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٤٠ فوصف التيارات الأدبية التى نشأت فى هذه الفترة ، وذكر أسبابها وما يرجى لها ومايخشى منها ، وترجم لجميع الأدباء المعاصرين فى دراسات عميقة لمؤلفاتهم ومتابعات دقيقة لأفكارهم وآرائهم ، وأنزل كلا منهم منزلته من كل مذهب أدبى ، وكل اتجاه فنى حالى واستقبالى ، وأوضح ارتباط بعضهم ببعض ، ومأخذ هؤلاء من أولئك ، ووصف تشابك النزعات وتقاطع الاتجاهات ، فى تفصيل وتحليل ، وتعليل وتدليل ، ينير السبيل ، ويشفى الغليل .

ولقد عبرت الكتاب عبرا ، وأفدت منه فوائد جمة ، لأنه كتاب يحملك على المطالعة ، وتحتفظ به للمراجعة ، ولكنه بعث فى نفسى فيضامن الشعور بالكآبة وضيق الصدر . فذكرت أننا اليوم فى منتصف المائة العشرين وأن هذه الخمسين سنة التى غبرت كانت آدابنا العربية فيها حافلة بنهضة مباركة شهدت نهوض الشعر العربى من عثاره ، وتحديد مذاهبه وقوالبه وافتكاك النثر العربى من إســاره ، وتوضيح مداخله ومخارجه ، ويقظة الفكر العربى من خموله ، واتساع آفاقه ومعالجاته ، واغتناء الأدب العربى بمذاهب أدبية طريفة لاعهد له بها من قبل ، كالقصص والمسرحيات . وقد ارتادت حركة البعث والإحياء مناجع قديمة ، وحديثة ، وربطت الماضى بالحاضر ، واندفعت إلى المستقبل تحمل عدة وافية ، وعتادا تستكمله يوما فيوما ، وتعمل على البلوغ به إلى الذروة . ولم تقتصر هذه

---

(١) بقلم خليل شيبوب

النهضة على مصر بل اتسعت إلى سورية ولبنان وسائر الأقطار العربية حتى المهجر الذى كنوا عنه بأندلس العصر الحديث .

أجل لقد ذكرت هذا كله ، ولكنى ذكرت أنه لم يتحرك أحد لتسجيل هذه النهضة المباركة وتاريخ مآتيها ومذاهبها والتعريف بالأعلام الأفذاذ الذين قامت عليهم تعريفا شافيا، سواء منهم الذين توفاهم الله تعالى اليه أو الذين لايزالون على قيد الحياة، مد الله فى أعمارهم ، ولا شك فى أن هـــذا الجمود تقصير تؤاخذ عليه كل المؤاخذة . بل إن نهضتنا الحديثة تظهر لمن ينعم النظر فيها مقسومة قسمين يسهل تحديدهما بالربع الأول والربع الثانى من هذا القرن العشرين ويستغرق تاريخ كل منهما مجلدا ضخما أو مجلدين لمن يرغب فى تفصيل الكليات لا الجزئيات .

ولما كانت النهضة اليوم آخذة مأخذها والبلاد العربية مستيقظة راغبة فى تنظيمها ، باحثة فى أنجع الوسائل التى تهدى إلى التوسع فيها وحسن توجيهها ، كان مثل هذا التاريخ أوجب مايكون لتعريف الجيل الجديد بها ووقفه على دقائقها وحقائقها .

ومن الغبن له ولنا أن يتخبط الباحث فيها ويند قلمه فى شوارد وأوابد عرفها البعض وجهلها البعض الآخر ، واطلع عليها هذا دون ذاك . فإذا ماألحت الرغبة على كل ذى رغبة فى الوقوف على هذه النهضة الميمونة رأى لزاما عليه الرجوع إلى مئات الكتب وسؤال عشرات المعمرين الذين عاصروا أولئك الذين لحقوا بالرفيق الأعلى من واضعى أسس النهضة وبناتها ، والعاملين على بعثها وإحيائها. وفى هذا إرهاق شديد لعله يثبط العزيمة المشحوذة ويقعد بالهمم الناهضة . فلا أقل من تلافى هذا الإرهاق ودفع عوامل التقاعد والتقاعس .

ثم فى تاريخ هذه الفترة القصيرة من حياة الأدب العربى تعريفا بالتيارات الأدبية المختلفة اليوم . وفى التعريف بها تنظيم لها ، وفى هذا التنظيم توجيه محمود سيتبين به الناشىء الجوانب التى تميل اليها ملكاته ، ويتفاعل بها ذوقه ، فينحاز

تبوغه اليها ويسير فيها، وينهض بها ، ولا يضيع وقته فى البحث عنها والضرب فى متاهاتها.

على أنه لم يعزب عنى أنه قبل تاريخ النهضة الحديثة يجب كتابة تاريخ الأدب العربى نفسه ، لأن ما بين أيدينا منه اليوم لايشفى أوام الباحثين ، وهذا بلا ريب نقص كبير يقتضى حديثا طويلا، ولكن الذى بين أيدينا اليوم منه لا يمكن إغفاله ، بل هو قد يعد مرجعا يعتمده الباحثون فى الاستدلال دون الاعتبار ، وفى الاستعانة به دون التعويل عليه . وإننا نربأ بمن نهيب بهم إلى تأريخ النهضة الحديثة أن ينهجوا ذلك النهج ، ويسلكوا ذلك المسلك . وإذا قام لأولئك المؤرخين الأعلام عذر فى وفرة المادة واستفاضاتها وفى تشعب الموضوعات وطول العصور الأدبية ، وكثرة الأسانيد ، ومعاناة استيعابها واستيفائها ، فان مثل هذا العذر لا يقوم للمؤرخ الحديث لقصر المدة وحدوث العهد ، وسهولة الوصول إلى المراجع والاهتداء بها .

تراجم المحدثين(١)

فى العام الماضى فكر جماعة من الأساتذة والكتاب فى إصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعظماء مصر فى العصر الحديث وكانت الغاية من إصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شىء ، فليس فى تراثنا التاريخى المعاصر مثل هذه السلسلة ؛ وما زالت سير الكثير من عظمائنا مجهولة مغمورة ، وما زال شبابنا المتعلم يتوق إلى استعراض هذه السير فى بحوث محققة ممتعة تغرى بالقراءة والدرس فلا يجدها . وسير العظماء زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء للشعور الوطنى . ولكن هذا المشروع العلمى الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير ، وطوى كما طويت مشاريع مثله من قبل .

إن تراجم العظماء تشغل فى آداب الأمم العظيمة وفى تاريخها أسمى مكانة ، فأقطاب الساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين ، هؤلاء جميعا يأخذون مكانهم فى التاريخ القومى العام ثم يأخذون مكانهم فى تراجم خاصة تذهب أحيانا إلى البحوث النقدية المستفيضة التى تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا ؛ وتقتصر أحيانا على صور موجزة ، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب وللقراءة العامة . ويخص هؤلاء العظماء بالدرس كل عصر ووقت ، ويحظون بمختلف البحوث والدراسات ، وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، ولكل مقامها العلمى والأدبى . أما نحن فكما أن النقص يعتور تاريخنا القومى ، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بما يجب من تحقيق وإفاضة ، فكذلك يعتور النقص هذه الناحية الخاصة ، أعنى ناحية التراجم والسير المفردة ؛ وقلما حظيت آدابنا التاريخية بترجمة محققة وافية لعظيم من عظمائنا المحدثين .

---

(١) بقلم محمد عبدالله عنان

على أن هذه الناحية الخاصة من المباحث التاريخية تشغل فى الأدب العربى القديم مكانة هامة . وقد بدأت العناية بها فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثانى للهجرة يعنى المؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى تملأ فراغا كبيرا فى الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العظماء ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين والكتاب والشعراء من كل ضرب ، ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة ، ومنها التراجم والسير الفياضة ، ومنها الموجزة . وفى الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية ، ونهضت فيه الآداب الأخرى غير أن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ، وينقطع سيره انقطاعا تاما فلا نكاد نظفر فى ذلك العصر بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة . وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق إلى تداركها حتى اليوم .

ويجدر بنا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفا من تراث التراجم والسير الخاصة فى الأدب العربى ، لنذكر شبابنا المتعلم بما خص به هذا الفن فى أدبنا من العناية والاهتمام ، وما انتهى اليه من النضج والتقدم . وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط . إذ يقتضى الإلمام بجميع آثار هذا الفن فصولا بأسرها . وفى مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة ، وأشهرها وأنفسها سيرة ابن اسحاق التى دونت فى منتصف القرن الثانى من الهجرة . وكتب ابن النديم كتاب الفهرست الشهير فى أواخر القرن الرابع ، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره ، ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ، فنجد الخطيب البغدادى المتوفى فى أواخر هذا القرن يستعرض فى كتابه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العظماء والخاصة

فى جميع الدول الإسلامية ، وفى القرن السابع وضع القاضى الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته العامة « وفيات الأعيان » فى تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعاً . فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الامم الإسلامية ومنها ، تراجم ضافية تملأ صفحات كبيرة ، ومنها تراجم موجزة . ولكنها تمتاز جميعا بالتحقيق ودقة التصوير ، وقد عنى ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة فنا حقيقيا ، ومازال معجمه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره فى القرنين الثامن والتاسع . وظهرت فيه الموسوعات الغنية الشاسعة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه ، ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو موسوعة كبيرة فى تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات . وللصفدى أيضا كتاب « الوافى بالوفيات » ، وهو موسوعة عامة فى تراجم أعلام الأمم الإسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره . ولم يصلنا منها أيضا سوى بضعة مجلدات وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تغرى بردى بكتاب عنوانه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ضمنه تراجم الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أى إلى منتصف القرن التاسع ، ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة ، يختص كل معجم منها بقرنه ، وأولها كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للحافظ ابن حجر العسقلانى ، ثم كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوى . وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ، ثم كتاب « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى العامرى ، ثم « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر

للمحبي الحموى ، ثم « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لأبى الفضل المرادى. وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر فى عهد الفتح الفرنسى طائفة كبيرة من أعيان مصر فى القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن الثالث عشر ، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم . وترجم لنا المغفور له العلامة على باشا مبارك كثيرا من أعيان مصر فى العصر الأخير فى كتابه « الخطط التوفيقية » ووضع المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر فى القرن الرابع عشر، وهى التى نشرتها « الرسالة » تباعا فى أعدادها الأخيرة .

هذا عن التراجم العامة . وأما عن الترجمة المفردة التى تقتصر على سيرة شخص معين ، والترجمة الخاصة التى تعالج طائفة خاصة من الأعلام فلدينا منها الكثير أيضا ، ونستطيع أن نمثل للترجمة المفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى فى أواخر القرن الثالث ، وسيرة المعز لدين الله لابن زولاق المصرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليلة ؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى « بعجائب المقدور » لابن عربشاه الدمشقى من علماء القرن الثامن ، وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقلمه ، وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوى وترجمة ابن الخطيب للمقرى ، وغيرها . ولدينا الكثير أيضا من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاة والنحاه وغيرهم ، مثل أخبار الحكماء للقفطى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر ، وكثير غيرها ، هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهى كثيرة

والخلاصة أن الأدب العربى غنى بتراثه فى فن الترجمة ، وقلما تنافسه فى ذلك آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحديث . ولكن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ، ولولم يوهب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبر

فى القرن الثانى عشر (القرن الثامن عشر الميلادى) ويتحفنا بموسوعته النفيسة « عجائب التراجم والآثار » لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولطمست سير الكثيرين من أعلامه . نعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدي ، ومنهج التحقيق العلمى ، لأنها ازدهرت فى عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية ، ولكنها مع ذلك تتمتع فضلا عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخى ، وفى وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نفائس مادته ، وقد كان الجبرتى خاتمة هذا الثبت الحافل من مؤرخين عنوا بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة ؛ ولم يقع لتراثنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتى أى منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد تقدمت المباحث التاريخية فى العصر الأخير تقدما واضحاً ، وبدىء بكتابة تاريخ مصر الحديث ، ولكنا حتى فى هذه الناحية العامة مازلنا فى مستهل جهودنا ، ومما يبعث على أشد الأسف والألم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواء من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا ، وأن نجد فى مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجده فى لغتنا العربية .

أما النواحى الخاصة فى تاريخنا القومى ، وأما سير عظمائنا ، وهى التى أوحت إلينا بكتابة هذا الفصل ، فما زالت مغمورة منسية ، وأى نسيان ، بل وأى نكران أشد من أن يبقى ذلك الثبت الحافل من عظمائنا ومفكرينا فى العصر الحديث دون ذكر محقق منظم ؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابى والبارودى وعلى مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم نقدية محققة يقرؤها الشباب والخلف ؟ إن العظماء فى الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكرهم بين مواطنيهم ؛ فإذا توفى أحدهم صدرت عنه غداة وفاته الفصول والكتب المحققة ، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته . أما نحن فننظر إلى التاريخ المعاصر نظرة الجحود والاستخفاف ، ونكتفى يوم يذهب أحد عظمائنا بأن نشيعه إلى قبره

ببعض المقالات والمراثى ، ثم لا يلبث أن يغمره النسيان إلى جانب اسلافه !
وهكذا يتكدس أمامنا ثبت عظمائنا فلا نتلقى من سيرهم وأعمالهم إلا صورا مشـــوهة ، بينما نعرف الكثيرعن عظماء الأمم الأخرى ، لأننا نجد فى سيرهم كتبا محققة ممتعة تشوق قراءتها .

ولاريب أن معظم التبعة فى ذلك الإهمال المشين يرجع إلى نوع الثقافةالتاريخية الذى نتلقاه فى مدارسنا ، فهذه الثقافة ماتزال قاصرة بعيدة عن أن تخص التاريخ القومى بما يجب من عناية ، بعيدة عن أن تذكى الشعور الوطنى فى نفوس النشء . والشعور بالكرامة القوية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عظماء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها .

هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات الصحف لننبه على إحدى مواطن الضعف فى ثقافتنا وآدابنا التاريخية ، ولنذكر بها إخواننا الذين فكروا منذ عام فى وضع تراجم وافية محققة لعظماء مصر فى العصر الحديث أن يعاودوا البحث فى هذا المشروع العلمى الوطنى الجليل ، ولعلهم موفقون هذه المرة إلى تحقيقه وإخراجه ، فيسدون بذلك ثغرة مشينة فى تاريخنا القومى ويضعون سنة حسنة فى آدابنا التاريخية ، ويستحقون بذلك تقدير الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

محنة الأدب المعاصر (١)

يجمل بنا ونحن على عتبة النصف الثانى من القرن العشرين ، أن نلقى نظرة عاجلة على تراثنا الأدبى فى السنوات الأخيرة . فماذا نجد فى هذا التراث . وأية مثالية له وأية رسالة ؟ .

حقا إنه من الصعوبة بمكان الإجابة ، إجابة موفقه مفصلة ، وإنما يمكن القول إجمالا بأن إنتاجنا الأدبى الأخير دار معظمه حول الإمتاع ، واهدف قليله إلى غرس الثقافة والألمعية ، وندر منه ماعبر عن آمال العصر وآلامه وأشواقه ودفع إلى ركب التقدم ودنيا الحضارة . فهو فى رأينا أدب متخلف عن عصره ، مذبذب فى هدفه ، أشبه بالسفينة فقد ربانها . واعترك راكبوها فى موج زاخر ، ورياح عاصفة ، وسماء عابسة كدراء .

فثمة طوفان من الإنتاج المنحرف ، يهدهد الغرائز ، ويخدر الأعصاب ، وثمة فيض من أدب البهرجة والزينة يسمّ المشاعر ، ويشل الأذهان ، وركام من الأدب القديم ينقل إلى أبناء القرن العشرين فى وشاحه العتيق ، وأصداء من دنيا الاموات ترددها أبواق فى عالم الأحياء ،وزفرات يصعدها المنطوون فى سماء مصر الصافية ، وجوها الوضاء ، وهمهمات من الغرب تهتف بها ببغاوات من الشرق ، ووسط هذه جميعا ، قد نجد نفحات أدبية منعشة للمشاعر والعقول ، وقد تقع على بذرات نقية تحاول أن تخرج من ظلمات التربة إلى أضواء الوجود .

ويمكن تقليب البصر فى فروع الأدب المختلفة ، من مقال أو شعر أو نقد أو ترجمة للأشخاص . أو قصة أو مسرحية ، لنشهد هذه الظاهرات المشجية ، منعكسة على تراثنا الأدبى المعاصر .

فالمقال فى أدبنا المعاصر ، مع استثناءات قليلة ، سطحى فى فكرته ، تافه فى

---

(١) بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ المقتطف مارس ١٩٥١ .

مادته ، مضطرب فى هدفه ، كأنما قد انعكست عليه بهلوانية الصحافة المتأمركة ، أو غنى فى لفظه فقير فى معناه ، كنسيج العنكبوت البديع ، احتمل ذبابة ميتة .

والشعر يتراوح بين كلاسيكية حفرية ورومانتيكية مريضة ، لا أصالة إلا فى النادر ولا طرافة ولا جرأة ، وهذا ملموس فى الدواوين التى صدرت مؤخراً فى عام ١٩٥٠ باستثناء ديوان (ليالى القاهرة) ، وفيما نشر فى المجلات الأدبية من قصائد تحمل روح القدامى ، وصياغتهم ، ولا تمت لروح العصر بأى نسب .

وحال النقـــد ، مع قلته أكثر سوءا ، إذ يضم إلى غرور التعالم ، التحامل والهوائية ، إنه أحكام مطلقة ضالة مضللة للشباب المتأدب ، ومثل هذا النقد لا ينصف ألبتة إنتاجا أدبيا ، ولا يدفع إلى خلق جديد .

وأغلب النتاج الروائى والقصصى ، مع كثرته ، ضحل ملىء بالافتعال ، تدور تجاريبه حول الحب الساذج ، والعـاطفة المصطنعة ، والذات المنطوية ، والشهوة العارمة ، فضلا عن وهن الأساليب ، وركاكة الصنعة ، ولسنا فى حاجة إلى ذكر شواهد محددة على هذه الحقيقة ، فرجعة إلى المجموعات القصصية الأخيرة ، الى قصص الصفحة الأخيرة من صحفنا اليومية ، تكشف عن هزال هذا الإنتاج الوفير الفقير .

ومع هذا ، فقد شعت وسط هذا الركام الأدبى المظلم ، ومصابيح تفهق بالضياء حملها بعض أدباء الشيوخ والشباب على السواء ، استهدى بأضوائها الجيل الحاضر ، واتخذها معلماً ، لرحلته الشاقة : ونذكر على سبيل المثال كتابات الدكتور طه فى مثل كتبه « ذكرى أبى العلاء » وحديث الأربعـاء » والفتنة الكبرى » وماجرت به براعة الدكتور هيكل فى مجلة السياسـة الأسبوعية وفى مثل كتابة « ثورة الأدب » .

وما دبجه الأستاذ أحمد أمين فى « فجر الإسلام وضحاه » و« زعماء الإصلاح » ، وما نشره العقاد والمازنى فى بداية حياتهما الأدبية ، من مثل « الفصول » و« ابن

الرومى » و « حصاد الهشيم » ، وابراهيم الكاتب وغيرها من التآليف ،وما أثاره الأستاذ اسماعيل مظهر من فكرات اجتماعية جريئة وما نفثه ريشة الدكتور مندور فى كتبه العديدة القيمة ، ومع ذلك فإن أدبنا المعاصر يعد فى محنة شديدة .

ولقد التمس المفكرون تعرف علة المحنة الأدبية الحاضرة ، فارتأى بعضهم أن « مشكلة الخبز » هى أس المحنة ، على حد قول المثل الفرنسى « قبل أن نتفلسف يجب أن نعيش » . ورجع بعضهم العلة إلى « معضلة النشر » لأن أغلب أصحاب دور النشر لا يحتفون إلا بإنتاج ذوى الأسماء الرنانة ، وإن كان غثا ، ويهملون إنتاج الشباب الصاعد .

وعلل آخرون أسباب المحنة بذيوع الصحف المعربدة بما تنشر من توافه ، وما تزخر به صفحاتها من مواد مخدرة ، وماتطعم به العقول من أكاذيب ، وانفعالات نازلة ، وما تقيمه من سدود فى وجه الأدب الرفيع ، بفضل المحررين الأنانيين ، أو إنصاف المتعلمين الذين يعملون بها ، حتى صرح أحدهم بأن الأدب مادة كمالية تستخدم فى الصحافة لملء الفراغ .

ورد الكثيرون مصدر العلة إلى عدم وجود المنبر الحر فى هذه البلاد ، وإلى تغافل الدولة عن إنصاف الأعمال الأدبية الممتازة ، ومعاونة الأدباء معاونة جدية ، على حين أنها لا تبخل بالمال ، على كثير من رجال الصحافة والمرتزقة .

وهذه التعليلات وأمثالها مع وجاهتها ، فى تعويق الحركة الأدبية المعاصرة ليست عوامل جوهرية فى الأزمة الأدبية الحاضرة ، فما كانت مشكلة الخبز فى عهد من العهود ، سببا فى محنة الأدب أو فض الأدباء عن الانتاج الصالح ، لأن الأدباء الأصليين يرتفعون دائما على البأساء ، وقد يرحب بعضهم بها ، ويجد فى جنباتها وحيا لأعمالهم الأدبية الحقة .

وأما النشر فهو مشكلة حقا ، ولكن يمكن التغلب عليها بتعاون الأدباء مع بعض الأغنياء المغمورين للعمل على إذاعة النتاج الأدبى الجديد ، وتكريس الجهد فى هذه الناحية المجزية ماليا وأدبيا ، ويمكن اتخاذ دور النشر الانجليزية ، مثالا ، حيث يهتم بعضها بالأدب الكلاسيكى ، وبعضها بالأدب الروائى ، وبعضها بالكتب الجامعية ، وبعضها بالادب العصرى المتقدم .

وليس من العسير أيضا ،التغلب على آثار الصحافة الحاضرة ، ومستواها النازل، بايجاد مجلة أدبية راقية ،أو أكثر،جديرة بمكانة هذه البلاد . يقوم على تحريرها صفوة من النوابغ المؤمنين بالرسالة الأدبية المعاصرة، وتعمل على تزويد القارىء بالموضوعات العصرية المنوعة ، والتجاوب مع الأذواق المتباينة ، والعناية بمشكلات المرأة والفلاح، ونحن لا نشاطر بعض الادباء مخاوفهم من نجاح مثل هذه المجلات الراقية ، لأن مآل الادب الحى الانتصار فى النهاية، ولأن هزال المجلات الادبية الحاضرة يرجع إلى نشر الموضوعات البالية والمطروقة ، أو العتيقة المتخلفة ، أو الخيالية المجنحة التى لا تتصل بالحياة .

ولا يعوز المنبر الحر على الأدباء الشجعان فى البلد الديمقراطى ، فالمنبر ينال ولا يوهب ، ونيله ميسور لأولئك الذين يعرفون الأصول الدستورية ، ويؤمنون بحرية الفكر ، ولا يخافون سخط المتصلبين ، ولا حنبلة المتزمتين ، ولا سطوة القادرين .

وأما تغافل الدولة عن معاونة الأدب والأدباء معاونة إيجابية ، فأمر من السهل معالجته بتضافر الأدباء على إفهام رجالات الدولة حقوقهم . وتقدير كفايتهم ، ووجوب توفير الفرص لهم ، فتقدير ذوى الكفاية والأقلام المتحررة خدمة للديموقراطية الحقة ، التى تنشد الحرية وتستهدف إعزاز ذوى الفضل والمعرفة .

فليست محنة الأدب المعاصرة إذن راجعة إلى العوامل الخارجية التى ذكرناها قريباً ، بل هى كما قلنا عوامل يمكن التغلب عليها ، وإنما مصدر العلة وأصل البلاء ، هو فى الأدباء أنفسهم ، وفى بلبلة مبادئهم ، وقصور ثقافتهم ، ووهن خلقهم ، فالملحوظ فى الآونة الحاضرة أن أغلب أدبائنا ، إن لم نقل جلهم لم تتبلور لهم مبادىء اجتماعية وقومية وإنسانية ، ولم يدينوا بروح الديموقراطية الحقة ، والوطنية الحارة ، والحضارة القويمة . ولهذا نجد إنتاجهم مبلبل الاتجاه منحرف الغاية ، لا يبض بثمر صالح للجيل ، فنفر كفر بالخير العام يبيع نفسه للصحافة المضللة ابتغاء الغنم المادى والشهرة الطائرة ، ونفر اختطفته المنفعة ، فعكف على عبادة الاقوياء والتسبيح بآرائهم ، ونفر هام بنفسه ، فوقف قلمه على الإعراب عن مشاعره التافهة ، وهواجسه الدخانية . وطائفة أخرى قنعت بثقافة قديمة محدودة ضيقة ، وأبى عليها مركب النقص التزود من الثقافة العالمية الخصبة ، والتفاعل معها ، فلم تنجب جديداً ، ولم تزهر ثمرة . وعلى عكسها كوكبة استمرأت التغذى على قشور الأدب الغربى فعاشت عليه عالة ، وأخذت تنفث فى الجو الأدبى مقولات غريبة لا تمت بأية صلة لروح الجماعة المصرية . وطائفة غير هؤلاء ركبها الغرور والتعالى ، وانفصمت عن الأدباء ، هانئة بحياة مترفة ، فى مجتمع يعج بالألم والشقاء والمرارة .

وهذه الفئات المتباينة من الأدباء ، لا تربطها نازعة المحبة ولا الإخاء وإنما تسيرها نوازع القطيعة والتنابذ والجفاء لولا بعض الثمرات الجديدة ، من مثل ما طعم به الأدب الأستاذ محمد خلف الله من نظرات نقدية وسيكولوجية وما تغنى به الدكتور أبو شادى وناجى والصيرفى وصالح جودت ، وما أخرجه محمود الخفيف من ترجمة لبعض أعلام الحرية ، وما زرعه بعض كتاب الرواية والقصة القصيرة من ثمار طيبة ، ونذكر منهم محمود تيمور ونجيب محفوظ ومحمود البدوى وعادل كامل ، والحجاوى والسحار ؛ وغراب والشاروني وغيرهم . وما أخرجه توفيق الحكيم فى فن المسرحية والرواية مما يعد فتحا جديدا فى هذين الفنين . ومن مثل تآليف الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى الخصبة .

وقد كان لطائفة من البحوث الجامعية الأدبية الضليعة أثر مذكور فى تكميل الثقافة المصرية والكشف عن تطورنا الفكرى ، فضلا عن أن الترجمة من الانجليزية والفرنسية والروسية كان حدثا مهما فى تلوين هذه الثقافة لونا جديدا ، وتوجيه الأفكار إلى ميادين أدبية رحيبة ، ونذكر من المترجمين المصريين الممتازين السباعى وعباس حافظ والمنفلوطى ومحمد بدران وحافظ عوض والزيات والمازنى وزكى نجيب محمود ؛ وغيرهم كثيرون أغنوا الأدب المصرى بترجمات موفقة ، فى الادب الخالص ، وفى فن القصة .

والملحوظ أن كثيرا من هذا الإنتاج وشبهه أخرج منذ ربع قرن مضى ، وقليله فى السنوات الأخيرة ، وأن طائفة من مثمريه سكتت فى الوقت الحاضر عن الإنتاج ، وما أخرج كان مقصورا على تزويد البيئة المصرية بالثقافة كرياضة فكرية دون أن يكون لها هدف فى توجيه الحياة الحاضرة ، وتقوية الوعى الاجتماعى والقومى ، ومجاهدة الفوضى السائدة فى المجتمع ، وفى المعتقدات والآراء .

وأما أكثر انتاجنا منذ عشر سنوات ، فهو كما ذكرنا فى صدر هذا المقال إنتاج سقيم ، قوامه إمتاع الغرائز ، أو بعث الأدب العتيق من رقاده العميق ، أو الهيمان فى أودية الأحلام . والعيش فى الأبراج العاجية ، دون تنبه إلى ما يعج به المجتمع المصرى من أحداث ، وما يدف به من آمال وآلام وخوالج ، ونزوع إلى التحرر الفكرى والاجتماعى ، والتجاوب مع الروح الديمقراطى الوثاب . وهذا فى رأيى تخلف خطر واستخفاف بالعصرية ، وخيانة أدبية لا تغتفر

ومن الأليم حقا ، أن الرواد ومن قفاهم من الأدباء الممتازين الذين خدموا الثقافة قد هزل إنتاج بعضهم فى الفترة الحاضرة ، أو جدب نهائيا لاعتبارات سياسية أو صحية أو معاشية أو نفسية أو اجتماعية ؛ ولهذه الظاهرة الأدبية آثارها الوخيمة الخطيرة . فقد أدبر الدكتور هيكل عن ميدان الأدب وانغمس بكلية فى ميدان السياسة الحزبية ، وقد كنا نعلق على جهوده أمالا وآمالا . وكف الدكتور زكى مبارك(١) عن التأليف الرصين واقتصر على شوارد أسبوعية يدبجها فى صحيفة البلاغ اليومية

(١) توفى رحمه الله فى مطلع عام ١٩٥٢

تضم ذكرياته السحيقة وبدواته الغربية وصباباته الوهمية ـ وودع الأستاذ ابراهيم المصرى رسالته الأدبية والنقدية بالنظر لحالته الصحية ، واكتفى بتسجيل خواطره الطائرة فى مجلة أخبار اليوم السياسية ـ وهجر الدكتور أحمد زكى أبو شادى(١) بيئته الجحود ، ففقدت بلاده بهذه الهجرة ركناً وطيداً من أركان التعاون الادبى ، وتباعد الرائد الكبير عبد الرحمن شكرى عن حقل الشعر ، وقصر جهده على بحوث شهرية يدبجها فى « المقتطف » تحت امضاء ع . ش ، واجتوى العقاد بحوثه الأدبية الرصينه ، وكفر بمبادئه الحرة الأولى ،وتوزع قلمه بين السياسة الحزبية العمياء ،والأدب الصحافى ، وكان آخر العهد به ديوانه « بعد الأعاصير » الذى شيع بتراتيل الأفول الخافتة .

وفقدت القصة القصيرة علمين من أعلامها هما الأستاذ يحيى حقى وطاهر لاشين ، إذ طلقها طلاقا رجعيا بل بائناً على مانعلم ، وخيب الحكيم اليوم آمال الصفوة فيه ، إذ دار فى فلك الصحافة ، فنزل مستوى انتاجه الحاضر ، عما كان قبلا ، نزولا مشجياً ، ففقد الجاليون روائعه الفنية ، أمثال شهر زاد وبجماليون والقصر المسحور وغيرها ، وحرم الواقعيون آثاره الواقعية : أمثال « عودة الروح » و « يوميات نائب » ، « وأهل الفن » وما إليها ، وكتابه الأخير « مسرح المجتمع » شهيد على ذواء فنه .

وسكن شعراء الحركة الإبتداعية سكونا أليما ، وعجزوا عن مسايرة روح العصر الجديد اللهم إلا ومضات تغطى عليها الظلمات ، فوقف حسن الصيرفى عند رومانتيكيته غارقا فى أحلامه وألحانه الضائعة ،اللهم إلا فلتات واقعية شهابية ، وقنع صالح جودت بأغانيه المخدرة هائما كالفرفور فى دنيا الزهر ، وهجر محمود حسن اسماعيل نفثاته الأدبية الأولى ، و الإعراب عن مرائى الحياة فى الريف ، شاطحا فى عالم المجهول ودنيا اللاشعور ، وركد مختار الوكيل ، وخيب تأميلنا فى إنجاب نقدى وشعرى مقدور . وأخلد سيد قطب إلى الرجعية والتعصب للتقاليد مجاهدا كل نزعة عصرية جديدة ، وتحول الدكتور رمزى مفتاح عن باحة النقد الأدبى إلى عالم الروح وميدان الرياضة

---

(١) توفى رحمه الله فى ١٢ مايو عام ١٩٥٥

وهكذا انكمش هؤلاء الأدباء وغيرهم شيوخا وشبابا عن الخلق الأدبى الجديد مؤثرين السلامة ، والهرب من المسئوليات الأدبية المعاصرة، فخلا الجو من الموهوبين وتفرقوا جماعات يحارب بعضها البعض الآخر !

ولم تعدم البيئة الأدبية ، رغم هذه الظلال القاتمة ، قلة من رجالها ، تغلبت على العوائق الخارجية التى أسلفنا ذكرها ، وتحللت من الانحرافات الباطنية ، ونشرت من خلال إنتاجها الأدبى أضواء تنير معالم الطريق للجيل الجديد .

ويحضرنا من هذه القلة ، أمثال الدكتور طه حسين ، والأستاذ سلامه موسى ، والدكتور أحمد زكى أبو شادى والأستاذ محمود تيمور ، وفريق من الشباب الصاعد يعمل فى صمت وتفان وإيمان كدودة القز ، تخرج للناس الحرير ، وتفنى فيه .

فلم تقف جهود الدكتور طه على نشر الثقافة ، وتربية الذوق الأدبى ، بل وقف فى الظلمات يرسل أضواء المعرفة ويعابث بقلمه وجه الظلم العبوس ، ويهتف فى عهود الطغيان هتاف الحرية ، وينادى بالعدالة الاجتماعية وكتابه ، « المعذبون فى الأرض » صيحة من صيحاته الذكية .

واعتنق الأستاذ سلامه موسى مبادىء الحرية فى العمر الطويل الذى حمل فيه القلم وبث خمائره الصالحة لايجاد ثقافة موجهة ، وتوليد الأفكار العصرية المتحررة ، وتآليفه العدة فى الاجتماع والأدب والسيكولوجية ، والعلم المبسط ، آية على مثالية الرجل ، وايمانه برسالة اجتماعية واعية ، يحاول أن يبثها فى شباب الجيل ، ويبلور بها وجهات نظره فى اعتناق العصرية .

ولم يقف الدكتور أبو شادى لحسن الحظ ، على ما ترك وراءه من كنوز أدبية وفكرية ولم تقعد به هجرته إلى نيويورك عن الإنتاج، فان جهوده الأدبية والفكرية مطردة هناك وإن كانت مقصورة على عدد من صفوة المفكرين ، وديوانه الأخير : « من السماء » ونفثاته فى « صوت أمريكا » شهيدة على نشاطه

الجسم وفكره اللماح الوثاب .. ولايفوتنا أن نذكر بالخير جهود الأستاذ محمود تيمور المتواصلة فى القصة القصيرة وفى المسرحية التاريخية ، ونزعته الواقعية فى مجموعة قصصه الأخيرة « كل عام وأنتم بخير » وفى مسرحيته الممتازة « حواء الخالدة » وغيرهما ، وهذا يحملنا على الافتخار بإنتاجه الحاضر والاستبشار بأدب موجه قابل .

ومما يملؤنا غبطة أن نجد انتفاضات تسرى فى صدور الشباب الصاعد لتوسيع آفاق الأدب الحاضر ، وتوديع المرحلة الرومانتيكية التى قطعها أدباء النصف الثانى من القرن العشرين ، وذلك بالتوجه إلى المجتمع ، والإعراب من آماله وأشواقه ونوازعه ، والارتفاع على التيارات المنحرفة التى تجرى فيه ، ومحاولة جهاد روح الهزيمة السائدة وتحويلها إلى روح ثقة وتفاؤل وانتصار ، وبمعنى آخر هجرة الفردية الأدبية واعتناق الجماعية .

فلقد رأينا الشاعر المجيد محمد مفيد الشوباشى ، يدعو فى مثل قصيدته « أنا والمجتمع » إلى ترك روح الانكماش والانطواء ، والانغماس فى موكب الحياة الزاخر ، وقد أنشأ مجلة « الأديب المصرى » هو وبعض الشباب المتوقد أمثال لويس عوض وعلى الراعى وعباس صالح وشعبان وعاشور وغيرهم منادين بأدب التفاؤل والقوة وخدمة المجتمع ، ومحاربة الأدب الذاتى والأدب الجنسى ، وأدب التسلية والتخدير .

ورأينا شاعراً شابا ينادى بمثل هذه الدعوة فى ديوان صدر مؤخراً يهيب بشعراء الحاضر أن يتركوا دنيا الخيال والأوهام ، وعالم الزهر والطير ، بالاندماج فى دنيا الناس ، فى مثل قصيدته « الشاعر التائه » حيث يخاطبه بقوله :

أنت تخلو إلى النجوم إلى الزهر   إلى الطير حينما تتغنى
دع جمال الخيال وادخل كهوفاً   للملايين وارو للكون عنا
إنما الفن دمعة ولهيب   ليس هذا الخيال والتيه فنا

ووقعنا على بعض القصص لشباب الطليعة تحاول إبراز الحياة المصرية على حقيقتها ، ولكنها قصص قلال مبثوثة فى الحاضر كحفنة من الماس فى ركام من من الزجاج المهشم .

ولكى نخرج من المحنة الأدبية الحاضرة ، فلزام علينا التخلص من رواسب أدبنا الكلاسيكى العتيق ، الذى يعيش فى أذهان الأدباء كشجرة الجميز العتيقة العابسة ، وأن تتغير نظرتنا إلى المجتمع ، فندرك أن مجتمع اليوم غير مجتمع الأمس ، فمجتمع اليوم لايهتم بالحياة العامة ، وقد انتابته أعراض وانحرافات لم يعرفها مجتمع الأمس ، فثمة بلبلة فكرية وذبذبة خلقية ، وخلخلة شعورية ، ونزعة جموحة إلى الانطلاق ، وبالتالى نجد فريقاً لايثبت على رأى أو فكر أو مبدأ ، وفريقاً متحيراً بين المثالية والوصولية ، وفريقاً مبلبل الحس لشعوره بعدم الأمان ، والخوف وما اليهما .

وهذا المجتمع المضطرب يحتاج إلى الأدب الحقيق لملاحظة مايضطرم به من نزعات مختلفة ، ووجهات متناقضة ولتمثل هذه الاتجاهات الجديدة والخروج من متناقضاتها بحلول سليمة مؤدية إلى الخير العام .

فأولئكم الأدباء الذين يعكفون على بعث أدب الماضى فى العصر الراهن ، إنما يقدمون شراباً قديماً فى زجاجات جديدة ، ولن ينتفع به الجيل الحاضر لتباين الاتجاه واختلاف المزاج ، وأولئكم الذين ينفثون فى الحاضر ، نزوات صدورهم وأنات قلوبهم ، لن يجدوا بعد اليوم من يعطف عليهم أو يقف خاشعاً فى مبكاهم ! وأولئكم الذين يجلبون من الغرب أدباً وجوديا مليئاً باليأس والفوضى ، أو أدباً كافكيا مختلطاً بالترف والتهويم ، أوأدباً سرياليا من بنات البارانويا ، إنما يريدون أن ينشروا فى البيئة المصرية بلبلة على بلبلة ، ويطلقون من لفافاتهم الملغمة دخانا مخدراً للشاعر ، خانقاً للاذهان .

فكيف السبيل إذن لإزهار أدب جديد ؟ هذا هو السؤال الذى نحاول الإجابة

عليه والجواب مثبوت فى ثنايا هذا المقال ، ويمكن تركيزه فى أن الادب لم يعد متعة أو تسلية بل صار عنصراً فعالا فى التوجيه الفكرى والاقتصادى والسامى ، وهذا الأدب هو الذى أقام النهضات . فلا بد إذن من توسيع آفاقه فى مصر فلا يقف الأديب جهده على الإعراب عن ذاته ، ومشاعره التافهة ، وغرائزه . بل عليه أن يتناول مشكلات الحياة من جميع نواحيها ، وحالة المجتمع لإمكان التلاؤم مع مستحدثات العلم والثورة الصناعية ، والمعانى الجديدة لحقوق الإنسان على أن يكون تناوله لهذه الموضوعات تناولا فنيا لا تقريريا كما يفعل كتاب الصحف و نقصد بالفنية رعاية قواعد الصنعة فى الكتابة سواء أكان موضوعها مقالا أم شعرا أم قصة ؛ أم ترجمة للشخوص ، مع مراعاة التفاوت فى أصول الصناعة الفنية لكل من هذه الفروع الأدبية ، وليس هذا مجال بيان هذه الأصول ولكن يمكن القول فى كلمات ، أن المقال مثلا فى تناوله ومادته يختلف عن القصة، فالمقال الفنى يمتاز بالطرافة أو الجرأة مع توصيل المعرفة توصيلا قويا نفاذاً والقصة الفنية لا تعنى بالمعرفة لذاتها ، ولا الدعاية مقصودة لناحية من النواحى الاجتماعية أو التاريخية أو الاقتصادية أو الفلسفية وإنما تأتى بالحقائق الاجتماعية أو الفلسفية أو غيرها بطريقة لا تطغى فيها الحقائق على الفن وإلا كانت أشباه قصص أو مجالات اجتماعية أو تاريخية أو فلسفية.

ولهذا يهمنا فى هذا الصدد أن ننبه إلى الخطأ الشائع فى تضمين القصة وقائع لا تحتملها ، لغاية أو هدف مقصود ، وذلك على حساب الفن ، أو الاقتصار على تصوير مظاهر الحياة المادية وحدها دون نظر إلى مظاهر الحياة المختلفة ، فكرية أو اجتماعية أو روحية .

فالوسيلة إذن لإزهار الأدب هو توسعة أفقه وشمول واقعيته ، أو بمعنى آخر أن يحتضن الأدب الجديد مايدور فى الحياة من واقعات وأحداث ، وما يدف فى جوانح الناس من عواطف وانفعالات و نوازع نتيجة لأحداث المجتمع وهذه هى النظرة المتكاملة التى ننبه إليها .

لكى نصل إلى هذا الأدب المتكامل فى نظرته ، لا مفر من وجود الأديب المبلور فى مبادئه ، اجتماعية كانت أو قومية أو خلقية ، الأديب ذى الثقافة الناضجة المرشحة ، الأديب ذى الشخصية النقية ، الذى يصدر فى عمله عن ضمير حساس وإخلاص حقيقى ، فمن هذه الشخصية ينبع الأدب الناضج الأصيل ، وشاهد ذلك قول الأديب الفرنسى الجهير . فلوبير لزوجة موباسان : — « إن صاحب الشخصية النقية يظفر بالأصالة ويسلك طريقة خاصة إلى الرؤية والشعور بمرور الزمن »

ولا نحتاج بعد شمول النظرة إلى الحياة ، ونقاء الشخصية إلا إلى الأدب النفسى فى معاملة بعضنا بعضاً ، والتعاون الحق لجمع الجمائر الأدبية الجديدة لتكوين النهضة الأدبية المرموقة فنكون كجماعة النمل التى تسعى كل واحدة فى طريقها ، ووفق إلهامها ، حاملة ما فى طوقها من جنى نافع لها ولجماعتها ، لتودعه مسكن الجماعة ، دون أن تعرقل واحدة أختاً لها ، أو تقف فى طريقها ، بل كل تعمل فى إخلاص وتفان لمعاونة الجماعة .

وبمثل هذا التعاون الذى نجده فى جماعة كاملة الغريزة ، مثل هذه الجماعة المتواضعة ، يمكن إقامة صرح الأدب الجديد ، والخروج من هذه المحنة الحاضرة .

الأدب بين المعاناة والهرب(١)

هل يجب على الأديب المفكر أن يعيش فى عصره أو أن يهرب منه : وهذا المعنى هو ما عبرنا عنه بـ « المعاناة أو الهرب » . قد يحاول بعض المفكرين التهرب من هذا السؤال الخطير فيدعى أن الحياة لا يمكن الهروب منها إلا بالموت وأننا مادمنا أحياء فلابد أن تدركنا الحياة ولو كنا فى بروج مشيدة لأنها كالليل الذى تحدث عنه الشاعر العربى فقال إنه لا مفر منه ، ولكن هذه المغالطة الفعلية من السهل كشفها ؛ فالبون شاسع بين الأديب الذى يعيش فى عصره يعالج مشاكله ويتحمل مسئولية رأيه ويجابه الأخطار التى قد يستهدف لها . وبين الأديب الذى يؤثر السلامة أو يأخذ بالتقية . فيلجأ إلى برج عاجى ينسج فيه خيوط فكره ويغلف نفسه بهذه الخيوط كدودة القز .

البون إذن شاسع بين الأديب الذى يعانى الحياة فى عصره وبين الأديب الذى يهرب منها ليحلق فى سماوات الخيال والفكر ، أو يكتفى بملاحظة حياة الناس من برجه العاجى ، حيث يراهم يتعثرون فى مجاهل الحياة أو يتخبطون فى ظلماتها أو يريقون دماءهم فى معاركها بينما يرى الآخر يخالط الناس ويشترك فى معاركهم ويريق دمه مع دمائهم عند الضرورة فتراه يعالج مشاكلهم السياسية والاجتماعية ويخلق من تلك المشاكل التى قد تكون عابرة قيما إنسانية وأدبية خالدة .

وفيصل البحث فى هذه المشكلة هو الموازنة بين قيمة الأدب الذى يصدر عن الأديب الذى يعيش عصره ويعانى الحياة فيه ، وقيمة الأدب الذى يصدر عن الأديب الذى يهرب من عصره وينأى عن مشاكل الحياة .

---

(١) بقلم الدكتور محمد مندور .

والذى لاشك فيه أن معاناة الحياة وخوض معاركها تتطلب من الأديب عدة فضائل أخلاقية قد لا يستطيعها جميع الأدباء ، كما أنها تتطلب مقدرة على المشاركة الوجدانية التى قد لا تستجيب لها جميع الطبائع، ولكن الإرادة البشرية وقوة النقد التوجيهى قد يدفعان الأدباء فى هذا الاتجاه فلا تقتصر قيمة أدبهم عندئذ على الناحية الجمالية أو النفسية بل تمتد إلى الناحية الإنسانية والاجتماعية، ويصبح الأدب عاملا أساسيا من عوامل الحياة لا مجرد ترف أو متعة . وفى البلاد المتخلفة المتطلعة إلى الوثوب ومسايرة ركب الإنسانية العام لابد للأدب من أن يؤدى ضريبته ولابد للادباء من أن يتحملوا جانبا من مسئولية المعارك التى يخوضها الوطن والشعب حتى ولو أصابهم الضر من تلك المعارك

والناظر فى أدبنا العربى المعاصر يلاحظ تفاوت الاتجاهات تبعا لطبائع الأدباء ولفنون الأدب المختلفة : ففى فن القصة والأقصوصة مثلا يلاحظ أن إنتاج الشبان يصدر فى الغالب عن معاناة حقيقية لحياة الشعب واختلاط بها واكتواء بنارها فى أغلب الأحيان وكل هذا ينم عن مشاركة وجدانية لاشك أنها من أهم أسباب نجاح هذ الفن الأدبى واستجابة الجماهير له ، وفى الفن المسرحى نلاحظ أن الكوميديا قد عالجت الحياة المعاصرة وتناولت مشاكلها فنجحت بينما نرى التراجيديا لاتزال تؤثر الموضوعات التاريخية أو الأسطورية . وقلما تستمد مآسيها من حياتنا المعاصرة، وربما كان هذا من أسباب عدم نجاحها وضعف إقبال الجماهير عليها، وأما الشعر فانه وإن تكن طبيعته الغنائية تملى عليه التغنى بمشاعر خاصة أو تجارب ذاتية إلا أنه مما لاشك فيه أن الشاعر يستطيع أن يرى المجتمع فى نفسه وأن يتحدث عن هذا المجتمع خلال شخصه ، وهذا اتجاه أخذنا نلمح بوادره عند شبابنا الشعراء .

ومعاناة الحياة لاتكسب الأديب معرفة بها فحسب بل وإحساسا بوقعها، وهذا الاحساس هو الذى ينفث الحرارة فى الأدب ، والحرارة هى التى تثير القارىء أو السامع وتنفذ إلى وجدانه وتحدد بصيرته وبذلك يؤدى الأدب وظيفته فى

تطهير النفوس وتقوية عنصرها الإنسانى .

والأديب المعانى للحياة لايكتفى برصد أحداثها وملاحظتها عن بعد بل ينفعل بها ولا يستطيع إلا أن يحكم لها أوعليها وأن يوحى بحلول لمشاكلها ويقاوم مافيها من فساد ويجابه هذ الفساد ولو لقى فى سبيل ذلك حتفه ،وهو يجد أكبر العزاء بل والمتعة فى أن يشعر بأنه يشارك إخوانه فى الإنسانية فى محنهم ويجاهد فى سبيلهم وينير لهم سبيل الخلاص .

وأما الأديب الهارب من الحياة فهو أحد اثنين: إما مسالم يؤثر العافيةويخشى العطب فينأى بنفسه عن مشاكل عصره ومآسى الحياة فى شعبه فيهرب إلى تهاويل الخيال أو غياهب التاريخ، وأما طموح مسرف يظن أنه لم يخلق لكى يبدد مواهبه فى أوحال الحياة ومشاكلها العابرة بل لكى يبتدع المعانى الإنسانية المطلقة والأخيلة الشعرية المجنحة ، ولكى يشدو لمجرد الشدو كالعصفور الغرد فوق الغصن المياس .

ومع ذلك فان الانصاف يقتضينا أن نقرر أن المعارضة بين هذين النوعين من الأدباء ليست مطلقة وذلك لأن معاناة الحياة والاشتراك فى معاركها قدلاتمكن الأديب من إحساس الملاحظة والإحاطة بجميع مايجرى فى ساحتها .

ثم إن الحياة مثلها كمثل البحر الصاخب أو الصحراء المهلكة ، وكما يحتاج سابح البحر أو عابر الصحراء إلى جزيرة أوواحة يأوى إليها ليستجم ويسترد قواه لمواصلة السباحة أو السيرفكذلك الأديب لابد له من أن يستجم من وقت لآخر لكى يسترد أنفاسه ، بل إن هذا الاستجام أكثر ضرورة للاديب من سابح البحرأوعابر الصحراء ، وذلك لأن الاديب لايستطيع الإنتاج وسط صخب الحياة وإلا كان أدبه « ضوضاء » ، كما أنه فى حاجة إلى عملية ترسيب تستقر بها الانطباعات التى يخرج بهامن معاناة الحياة وخوض معاركها . وهذا الترسيب لا يمكن

أن يحدث إلا فى عزلة واستجمام يستطيع الأديب أن يفحص فيهما ضميره ويعاود نفسه ويستخلص الدروس التى تمخضت عنها تجاربه فى الحياة ، ومن المعلوم أن كل أدب صادق ليس إلا صياغة فنية لتجارب بشرية ومن البين أن مثل هذا الاستجمام يختلف اختلافا بينا عن الهروب الذى نقصده فى وضع هذه المشكلة .

وهكذا يتضح كيف أن المشكلة الرئيسية فى الأدب ليست فى علاقته بالحياة وإنما هى فى معاناة الأديب للحياة فى عصره أو الهرب منها كما يتضح أن الإجابة على هذا السؤال الخطير ليست هينة ولا موحدة وإنما هناك مفارقات دقيقة يجب أن نفطن إليها وقد تختلف فى شأنها الآراء وهو اختلاف نرحب به ونرجو أن نسمعه من أدبائنا بمختلف أجيالهم واتجاهاتهم وفنون الأدب التى يعالجونها .

مشكلات الأدب العصرى(١)

فى مطلع هذا العام احتجبت مجلة « الثقافة » بعد أن عاشت ست عشرة سنة ، وبعد شهر من احتجابها أعلنت زميلتها الرسالة أنها تتوقف عن الصدور . هذه محنة الصحافة العلمية والأدبية فى الزمن الأخير ، وهى محنة عامة لا تخص البلاد العربية ، فقد ظهر من تجارب البلاد الأوربية والأمريكية أن هذه الصحف المقصورة على العلم والبحث والأدب المحض لا تعيش بغير معونة الحكومات والجماعات أو معاهد النشر على التعميم ، وأنها لا تثبت بغير هذه المعونة أمام السيل الجارف من المبسطات العلمية والأدبية التى تتدفق من المطابع كل يوم ، فهذه المبسطات تزاحم المجلات العلمية والأدبية ولكنها لا تزاحم الصحافة السياسية وصحف الأخبار اليومية أو الصحف التى تروج بما فيها من الفضائح وصور العراة .

تلك هى العلة الحقيقية لكساد هذه الصحافة ، وهى كما أسلفنا علة شائعة غير مقصورة على مصر أو غيرها من بلاد الشرق العربى ، ونحن فى شرقنا لا نزال نشكو الأمية الغالبة، ولا نزال نشكو الصدوف عن القراءة بين كثير من المتعلمين ، ولكن البلاد التى ليس فيها أمى واحد ويندر فيها من يصدف عن القراءة قد أصابها من محنة هذه الصحافة ما أصابنا وزيادة ، نعم وزيادة . . . لأن المبسطات التى يتوالى صدورها هناك أكثر من المبسطات التى تصدر فى بلادنا . فى السنتين الأخيرتين احتجبت فى اللغة الإنجليزية مجلة « الأفق » ومجلة « الكتابة الجديدة » ومجلة « الكتابة اليوم » ومجلة « المطالعة العصرية » وكلها كما يدل اسمها حديثة بمنهجها وموضوعاتها ، يكتبها المتطرفون من دعاة التجديد ، بل يكتبها من يسمون أنفسهم بالمستقبليين المتطرفين، ولا ينفعها أمام العلة الحقيقية زعم التجديد ولا الإسراف فى التجديد .

---

(١) بقلم عباس محمود العقاد

وظاهر مما تقدم أن احتجاب الثقافة والرسالة لا شأن له بالقديم والجديد ، وظاهر منه أيضاً موطن الضعف والعجز فى أقوال الذين ينسبونه إلى القديم والجديد ، فموطن الضعف والعجز فى أقوالهم هو الجهل والتهجم بغير بينة ولا بيان .

على أن صيحة القديم والجديد كلها لاشأن لها بالقديم والجديد ، ولكنها فى حقيقتها صيحة عجز وضعف تظهر فى كل فترة من الزمن بتعلة من التعلات ، ولا جامعة بينها إلا أنها جميعاً من تعلات العجزة الضعفاء .

منذ سنوات ظهرت هذه الصيحة لتنعى على الأدباء القدامى أنهم لاينتجون ، وهذه الصيحة اليوم تظهر لتنعى عليهم أنهم يتابعون الإنتاج فلا يلاحقهم القراء والنقاد . ومنذ سنوات صاح من صاح لأن شيوخ الأدب يكتبون ما لا يطلبه قراؤهم ، وفى هذه الأيام يصيح من يصيح لأن هؤلاء الشيوخ ينزلون على هوى قرائهم فيقبل القراء عليهم بالألوف . ولو عنى باحث باستقصاء هذه التعلات وأشباهها لما خرج منها بطائل، غير أنها تتضارب وتتناقص وتدل بذلك على أنها ملفقة منتحلة تظهر غير ماتبطن سواء صدرت من عند أصحابها أم دفعهم إليها دافع ممن يعملون وراء الستار . والغالب على المتصايحين بدعوى الجديد أنهم فريقان : فريق يتكلم بما عنده على قدر جهده ، وفريق يندفع بإيعاز من غيره ويردد ما يلقى إليه وهو لا يفقه مرماه . أما المتصايحون بالدعوى من عند أنفسهم فهم طائفة من ضحايا الآفة الغالبة على العصر الحاضر ، ونريد بها آفة المطالبة بالحقوق ونسيان الواجبات والفروض . وقد بدأت نزعة المطالبة بالحقوق سليمة صحيحة منذ مائتى سنة ، ثم اندفعت إلى الشطط كما تندفع كل حركة فارقت منبعها ، فانقلبت فى نفوس ضحاياها إلى ادعاء كل حق ونسيان كل واجب ، فمن أصيب بها فصابه المحزن أنه يدعى ولا يعمل، ويأخذ ولا يعطى ويحسد غيره على نصيبه دون أن يعمل ما يستحقه ، وليس فى طاقة المصاب بهذه الآفة أن يصبر على الجهد وأن ينتظر غاية الطريق وأن يلوم نفسه على التقصير ، فإنما التقصير كله من غيره وإنما المطلوب منه هو الادعاء ثم الادعاء بلا سعى ولا عناء .

وفى مصر آفة أخرى تقترن بهذه الآفة العامة ، وهى آفة الناشئة الذين غرر بهم الساسة والصحفيون وأوقعوا فى روعهم أنهم بدعة بين الأجيال لأنهم ولدوا مثلا فى سنة خمس وعشرين ولم يولدوا قبل ذلك بعشر سنوات . ولا شك أن هؤلاء الناشئة بدعة بين الأجيال ولكن على نقيض المعنى الذى توهموه ، فهم بدعة بين الأجيال لأن واجباتهم أثقل من واجبات الأجيال السابقة ، ولأن الأهبة للقيام بتلك الواجبات أصعب وأعظم ، إذ هى أهبة الناظر إلى شؤون العالم كله فى السياسة والاقتصاد والأخلاق ومشكلات المجتمع والعقيدة ، فلا يستعد لها الناشىء بغير علم واسع وخبرة طويلة وصبر على العمل والتضحية ، وشتان هذا المعنى من المعنى الذى توهموه واستراحوا به إلى الطمع والتطاول بغير عدة صالحة إلا أن تكون عدة اللغط والصياح ، وهى أبعد العدد عن أن توصف بالصلاح .

وليس كل الناشئين فى هذا الجيل مصاباً بهذه الآفة ، ولكن الآفات إنما تظهر حيث تستضعف البنية ، وهؤلاء المساكين هم ضعفاء الجيل الذين لا أمل لهم فى المستقبل ، وقد سبقهم عشرات من أمثالهم قبل سنوات ، ثم غطى عليهم النسيان فلا عمل ولا صياح . أما الفريق الآخر ـ وهو الفريق الذى يندفع بإيعاز من غيره ـ فهو آلة فى أيدى الهدامين من دعاة الفوضى والهرج والتعطيل ، وهم مغيظون محنقون من كل أدب يقيم دعائم المجتمع ، ولا سيما اللغة الفصحى والقيم الروحية . وهم إذا تصايحوا على « الأدباء الكبار » لم يعلنوا بطبيعة الحال غايتهم من هذا الصياح ، ولم يكشفوا عن نياتهم من هدم اللغة الفصحى والقيم الروحية ، ولكنهم يهرفون بما يسمونه أدب الحياة ، وهم أبعد الناس من أدب الحياة . وإذا كانت الحياة الإنسانية هى المقصودة فليس أحيا من حياة الأبطال والأعلام . وليس أولى بالبحث فى هذا العصر خاصة من مشكلات الضمير وخفايا العقيدة ، وهذه الموضوعات هى التى ينعاها الهدامون على « كبار الأدباء » لأن الهدم لا يتم لهم ما دام للعظمة الإنسانية بناء قائم ، وما دام للضمير والعقيدة صوت مسموع . أما إذا كانت الحياة المقصودة هى حياة المعدة دون غيرها فتلك إذن حياة البهيمية لا

حياة الإنسانية ، وأظلم الناس للشعوب من يصمها بتلك الوصمة المخزية ، بل إن أظلم الغاصبين من يفرض على الشعب أن يقرأ فى موضوع واحد لا يتعداه وهو موضوح الخبز والماء .

نعم هو أظلم الظالمين حقاً ولا نقولها مبالغة ولا تجوزاً فى التعبير .

فإن غاية الظلم من رأس المال البغيض أنه يسخر الأيدى والأقدام فى طلب الخبز والماء ، فأما أن تسخر العقول والضمائر والأذواق والأحلام ـ فلا يتخيل المتخيل إلا خبزاً ولا يفكر المفكر إلا خبزاً ولا يرسم الرسام إلا خبزا ولا يتغنى الموسيقى إلا خبزاً ولا ينظم الشاعر إلا خبزاً ـ فذلك والعياذ بالله هو الظلم الفاحش الذى لا ينتهى إليه وما انتهى إليه رأس مال قط فى قديم أو حديث . ومن الجهل أو التجاهل أن يقال إن هذا المذهب هو مذهب كارل ماركس وزملائه فى الأدب والفن ، فإن ماركس يقول فى كلامه عن الفن الإغريقى من مقدمة نقده للاقتصاد السياسى : « إن أدواراً معلومة من أطوار الفن العليا تقف على غير صلة مباشرة بأطوار المجتمع العامة ولا ترتبط بالأسس المادية ولا بالهيكل العظمى الذى تنبنى عليه » . وإنجلز يقول فى خطابه إلى ستار كنبرج (٢٥ يناير ١٨٩٤) : « إن الفن العالى قد يؤثر فى الحياة المادية ويوجهها ولو لم يعمل لبنائها » . وتروتسكى يقول فى كلامه على الأدب والثورة : « إن اللغط بما يسمى أدب الصعاليك وثقافة الصعاليك خطر على الثورة ، لأنه يقيد المستقبل بحدود الحاضر الضيق » . ولنين يتغنى بموسيقى بيتهوفن وروايات تولستوى كما جاء فى مذاكرت زوجته وأصحابه ، ولا يقدح فيهما لأنهما يتبعان فى الفن أسلوباً غير أسلوب زمنه ، وقس على ذلك آراء الأقطاب والأئمة الشيوعيين ، وقد لخصها الناقد الكبير إدمون ولسون فى فصله القيم عن الماركسية والأدب ، فمن شاء فليطلع عليه .

الذين يتصايحون بأدب المعدة يجهلون الشيوعية التى تسخرهم لأغراضها أو عامدين ليخدموا تلك الاغراض ، ومن أهمها هدم اللغة الفصحى وتلويث

كل عظمة وخنق كل نزعة روحانية تفرض للإنسان حياة غير حياة البطن والجسد، وتشوقه إلى مطلب غير مطلب الخبز والماء .

ونحن نتلقى كل أسبوع صنوفاً من الكتب التي تظهر فى أوربة وأمريكا، ونقرأ فيها ما يكتب حتى اليوم عن هومر وشكسبير ، وعن القديسين والدعاة الدينيين ، ويصل إلينا منها ما يترجم عن الروسية وفيه كلام عن أخبارها وحكمائها الأقدمين أو كلام عن مشاهير الأموات ممن لهم علاقة بالعصر الحاضر أو لا علاقة لهم به على الإطلاق ، ولو حصرنا ما ورد منها فى هذا الأسبوع ورأيناه فى المكتبات لا ستغرقت أسماؤه صفحات ، ولم يقل أحد إن هذا الأدب فضول لا يلتفت إليه . ولو قاله أحد لكان الفضول الذى يلتفت إليه هو ما قال .

فالتصايح عندنا بما يسمونه تارة بالادب الجديد وتارة بأدب الحياة إنما هو لغط ملفق لا يصدر عن فكر صادق ولا شعور قويم ، ومعظمه - إن لم نقل جميعه - محال يخفى وراءه غير ما يعلنه ويتعلل كل يوم بتعلة تناقض تعلته فى أمسه ، ثم تنطوى فيهملها وينساها أول اللاغطين بها قبل ذلك ، لانها نبت مصطنع بغير جذور.

ولا ضير على الادب الحى من ذلك اللغط الفاشل ، فإن القارىء الذى يسمعه وينساق إليه مفقود فى حساب الأدب لا يقدم ولا يؤخر ، ومن كان من ضعف السليقة بحيث يصرفه اللهو عن الجد ويشغله الرغو عن المحض فمن الخير للكاتبين أن لا يضيع كلامهم بين رأسه وأذنيه .

حاضر الأدب العربي(١)

دعاني إلى الكلام في حاضر الأدب العربي أمران : أولهما أن الأدب العربي هو الجامعة الروحية الحق للعرب جميعاً ، اتصل بها حبلهم حين تقطعت الأسباب ، وانتظم عليها شملهم حين شتت الوحدة . ومزية هذه الجامعة أنها من وحي الله ومن صنع الطبيعة ، فلا يوهي من عقدها تناقض رأي ورأي ، ولا تعارض غاية وغاية ، وفضيلة أعضائها أنهم كالأنبياء يبنون لتعمر الأرض ، ويبذرون ليحصد العالم ، ولا يؤثرون بجهدهم وطنا على وطن ، ولا يخصون بخيرهم قوما دون قوم .

لذلك كان من الخير أن يتحدث أعضاء هذه الجامعة بعضهم إلى بعض كلما واتتهم الفرصة لهذا الحديث .

أما الأمر الآخر فهو سؤال من الأسئلة التي عرضتها الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية للإجابة عنها في هذا المؤتمر ، ونصه كما ورد في الصفحة الثالثة عشرة من البرنامج .

« ماذا يجب أن تعمله المدرسة للتغلب على النزعة الأدبية والكلامية المنتشرة في البلاد العربية ، ولإشاعة روح التفكير العلمي بين شباب العرب » ولست أدري إلام يرمي هذا السؤال ؟ أيرمي إلى قتل النزعة الأدبية في الشباب ليصبحوا جميعاً أصحاب علم ورجال عمل ؟ وهل هناك تعارض بين الأدب والعلم فلا يجوز أن يكون للأديب من العلم مايكسبه الضبط والدقة والوضوح ، وأن يكون للعالم من الأدب مايقيه المادية والثقل والجفاف ؟ أم يرمي إلى أن الأدب كلام وأن

---

(١) بقلم أحمد حسن الزيات

العلم عمل ، وشباب العرب وهم أحوج إلى النهوض المادى قد انصرفوا إلى الأدب عن العلم ، ولهوا بالقول عن الفعل ؟ إن كان ذلك مايرمى إليه فان الواقع يخالفه . ولعل فى تهافت الطلاب على شعبتى العلوم والرياضة مايدعو إلى التفكير فى مستقبل كليات الآداب والحقوق .

على أن الكلام إذا كان ألفاظا فارغة كان غثاء وثرثرة ، فاذا كانت ألفاظه حافلة بما ينفع أو يفيد ، كان إنتاجه عملا مثمراً لايقل خطراً عن صنع آلة أو اختراع قنبلة أو كشف دواء . ورجال الأدب الخليقون بهذه الإضافة أقل عدداً فى كل أمة من رجال العمل والمال والسياسة ، ووظيفتهم وهى التفكير والتعبير أقوى أثراً فى رقى الأمم من وظائف أولئك جميعاً .

ومهما يكن من مرمى هذا السؤال فانه هو والأمر الأول قد حركا فى نفسى الكلام فى حاضر الأدب العربى عسى أن يكون له من عناية المؤتمر نصيب أكبر ، وحظ أوفى .

حاضر الأدب العربى لايطمئننا كثيراً على مستقبله . حظه من المنهج الحديث قليل ، وهذه القلة نفسها مبتلاة بسوء الطريقة فى تعليمه ، وقلة الرغبة فى تعلمه ، فلا المعلم على الجملة صادق الجهاد فيما يعطى ، ولا المتعلم على العموم حسن الاستعداد لما يأخذ . والأثر المحتوم لهذا الحظ المنكود فى كمه وفى كيفه ، هو ضعف الملكة فيمن يكتبون ، وفساد الذوق فيمن يقرأون . وإذا ابتليت أمة بضعف الملكة فلا تحسن أن تعبر ، وبفساد الذوق فلا تعرف كيف تقدر ، أصبحت لغتها بينها أشبه بالرموز اللفظية البدائية ، لاتشعرها بجمال ، ولا تحفزها لكمال ، ولا تربطها بماض ، ولا تصلها بمستقبل .

كانت علوم الأدب فيما مضى تدرس فى الأزهر وفى دار العلوم وفى مدرسة المعلمين العليا وفى أشباهها من معاهد لبنان وسورية والعراق دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم مايقرأ ، وفقه مايعلم ، وتعليل ماينقد ، وتحليل

ما يدرس ، فاذا اتصل النظر بالعمل ، واقترن الحكم بالتطبيق ، وصادف ذلك استعداداً فى المتعلم ، نبغ الكاتب الذى يكتب عن علم ، والشاعر الذى ينظم عن فن ، والناقد الذى يحكم عن تصور . أما إذا قوى الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذى يهيىء الوسائل ويقرب الموارد ، ويوجه المواهب ويسدد الخطى . ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر ، وتنمو لتنتشر ، وتسمو لتخلد . . وكان من خريجى هذا المنهج القديم ، فى التعليم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة ، وجددوا شباب الأدب ، وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة . ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة فى أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع دون آخر ، فاذا ماخلت أمكنتهم من المجتمع بعد أجل طويل أوقصير ، فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب ؟ ليس أمام الراصد الأدبى من الظواهر الواعدة مايحمله على أن يجيب عن هذا السؤال بنعم . كل شيء يبعث على التشاؤم : منهج تطبيقى يكاد يخلو من القواعد ، كما كان المنهج السابق نظريا يكاد يخلو من التطبيق . وتعليم سطحى مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان بأية وسيلة ، فالمطولات تختصر ، والمختصرات تختزل ، فلا يبقى بعد ذلك فى ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هى مستقرة ولا هى واضحة . وزهادة فى الجدى النافع من ثقافة اللسان والقلم ، تقعد بالنشء عن تعمق الأصول وتقصى الفروع ، وتقنعهم بالقدر الذى ينقلهم من سنة إلى سنة ، أو من شهادة إلى شهادة . فاذا ماتخرجوا عادوا كما بدأهم الله أميين لايقرأون إذا قرأوا إلا السهل ، ولا يطلبون هذا السهل إلا فى قصة عامية تخدر الشعور ، أو فى مجلة فكاهية تنبه الشهوة ، حتى نشأ من إفراطهم فى هذا الطلب إفراط الكتاب الخفاف فى عرض الأدب اللذيذ الذى لاينفع ، أو الأدب الماجن الذى لايرفع ، ذلكم إلى طغيان الأدب الأوربى بمذاهبه ونزعاته وترهاته على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ، ففتنهم عن أدبهم ، وصرفهم عن تاريخهم،

وزين فى قلوبهم أن الآداب الغربية من لوازم المدنية الحديثة . فكما تركنا فى الأكل اليد إلى الشوكة والسكين ، وفى اللباس الجبة والقفطان إلى الجاكتة والبنطلون ، ينبغى أن نترك فى الكلام اللغة العربية وأدبها إلى اللغة الأوربية وأدبها ليقال إننا متمدينون تقدميون ، نحفظ هوجو ولا نحفظ المتنبى ، وندرس فلتير ولا ندرس الجاحظ ، ونقرأ لامرتين ولا نقرأ البديع ! ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لأدب الغرب ، فأساليب الشباب اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب اليوم هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ! وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التى كرمت الإنسان وفضلته عن سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل ، ولا يتحداها وهو مؤمن ،

ليس الأمر فى الأدب كالأمر فى العلم : الأدب للنفس والعلم للناس ، الأدب مواطن والعلم لا وطن له ، الأدب روح فى الجسم ودم فى العروق يكون شخصية الفرد فيحيا مستقلا بنفسه ، ويبرز شخصية الشعب فيحيا متميزاً بأفراده ، الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد ، والعلم شىء غير أولئك كله . فاذا جاز طبعا أن نأخذ عن غيرنا ما يكمل نقصنا فى العلم ، فلا يجوز قطعا أن نرجع إلى هذا الغير فيما يمثل نفسنا من الأدب.

إن من أشـــد البلايا على الأدب الحاضر بليتين : العامية فى اللغة والعلمية فى الأسلوب : أما العامية فى اللغة فلو كان الغرض منها إمداد الفصحى بما تزخر به لغة العامة من مصطلحات الحضارة وألفاظ الحياة العامة لقلنا نعم ونعام عين ، ولكن الغرض الذى ترمى إليه الثقافة الضحلة والدراسة السهلة هى أن يكتب الكاتب كما يشاء ، لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا قياس من صرف ، ولا نظام من بلاغة . ولم يعرف قبل اليوم فى تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد فى لغته كاتبا أو

شاعراً وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه . إذا كنتم تقرأون الصحف والكتب ولا تقعون على الخطأ الذى يفضح المستور ويكشف الغش ، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين الذين يرابطون ليل نهار فى دور النشر ويسمونهم المصححين ، فانه يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم ، وعلى المعجم فيعرب ، وعلى الركيك فيقوى .

وللعامية أنصار من بعض الكبراء الذين تعلموا فى قصورهم على المربيات وهؤلاء لهم نفوذ معوق ، ومن أشباه المعلمين الذين يتولون تعليم العربية فى مدارس الأجانب وهؤلاء لهم توجيه ضار . حدثتنى معلمة فاضلة أن أحد الأمراء رغب إليها فى أن تنظر فى تعليم ولديه ، وفى المنهج الذى يدرسان عليه ، ثم تكتب له تقريراً بما ترى . فكان مما لاحظته المعلمة أن الولدين يتكلمان العربية باللهجة التركية ولا يعرفان من قواعدها الضرورية شيئاً . فلما كلمته فى ذلك ابتسم وقال لها ما نصه : « لا ، مش عاوز كلام أزهر ولا كلام أولاد بلد » . وحدثنى معلم فاضل عين مشرفا على امتحان النقل فى مدرسة أجنبية ، فلما أخذ يدقق فى أجوبة التلاميذ قال له المفتش وهو رجل عربى من رجال الدين المسيحى : « حسبك يا أستاذ ! إن تلاميذنا يتعلمون العربية ليكلموا بها الخدم » !

وأما العلمية فى الأسلوب فلو كان الغرض منها اقتباس الروح العلمى فى تحديد الفكرة وتصحيح القياس وتدقيق العبارة ونبذ الفضول وتوخى الفائدة لقلنا نعم ونعام عين ؛ ولكنهم يقصدون بالعلمية بخس القيمة الجمالية للأسلوب ، وخفض المستوى الرفيع للبلاغة، فيكون الكلام جاريا على نهج العلماء فى تأدية المعنى المراد فى اللفظ السهل ، أو على سنن التجارة فى ضغط المعنى المحدود فى اللفظ المختزل ، ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذى يبعث الحياة فى المعانى فتؤثر ، ولا من الفن الذى يلقى الألوان على الصور فتمتع ، ولا من الشعور الذى يشيع الهمس فى الجمل فتوحى .

إن الأسلوب العلمى أسلوب من أساليب التعبير لا هو كلها ولا هو خيرها ، وإنما

هو أسلوب تقتضيه حال كما تقتضى غـيره أحوال ، فالسعى لتغليبه على غيره من الأساليب مخالفة للطبيعة ومجافاة للطباع . والمعروف فى تاريخ الآداب أن المذاهب الأدبية والاساليب الفنية هى التى تتنافس فى الشيوع وتتفارس على البقـاء ، أما الاسلوب العلمى فله مجال آخر ورجال أخر : مجاله العلوم ورجاله العلماء . والعلوم والعلماء يتخذون من اللغة أداة ضرورية للفهم والإفهام ، لا وسيلة كمالية للجمال والإلهام ، فأساليبهم فى فن الكلام أشبه بالصور الجغرافية والخطوط البيانية فى فن الرسم : يقصد بها البيان لا الزخرف . ويراد منها الحق لا الجمـال . فاذا صح أن نقول للرسامين ، اقتلوا فى أنفسكم ملكة التصوير الجميل لتصبح رسومكم كلها جغرافية أو هندسية ، صح بالقياس أن نقول للكتاب : اقتلوا فى أنفسكم ملكة التعبير الجميل لتصبح أساليبكم كلها علمية أو فلسفية .

هـــذه على الإجمال الخطوط البارزة فى صورة الأدب العربى الحاضر ، منها خطوط بيض تشرق عليها أشعة من أقلام الصفوة الباقية من رجال المدرسة القديمة والتابعين لهم بإحسان من الشباب المعتدل ، ومنها خطوط سود تخفق عليها ظلال من المستقبل الغامض يساعد على مدها تساهل المدرسة الحديثة والتابعين لها من الشباب المتطرف . فاذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية ، لأن أساليبها غالبة على السمع ، وقواعدها جارية مع الطبع ، فلا يحتاج تحصيلها إلى درس ، ولا النبوغ فيها إلى ملكة ، وتغلب الأساليب العامية معناها فصل الأدب عن الدين ، وقطع الحاضر عن الماضى ، وتوهين الصلات بين العرب . وفى اعتقادى أن أمر العربية وأدبها لا يصلح إلا بما صلح به أوله : فقه اللغة جد الفقه ، وفهم قواعدها أشد الفهم ، وحفظ آدابها كل الحفظ . وذلك يستلزم الجهد والجد فى إعداد المعلم ، والعلم والخبرة فى وضع المنهج ، وتوفير الزمن الأسبوعى لإستقصاء الدرس ، وتنظيم الامتحان العام على النحو الذى يخرج ولا يحرج

وما أظننى أعدو الصواب إذا قلت إن الثقافة العامة للشاب إنما توزن بالقدر الذى يحصله من ثقافة لغته . فاذا استطاع بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ، ويكتب

فيحسن ، استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم والدليل إلى كل غاية . والمثقفون متى تركوا مقاعد الحياة المدرسية إلى مواقف الحياة العلمية ، تبخر من رءوسهم أكثر ما تعلموه ، فلا يكاد يبقى من ثقافتهم إلا ما حذقوه من اللغات وما شدوه من الآداب ، ذلك إذا كانت ثقافتهم الأدبية ثابتة الأصول نامية الفروع ، فاذا كانت كغيرها من الثقافات الأخرى سطحية رخوة أتى عليها النسيان فيصبحون أميين فى المخطوط بعد أن كانوا أميين فى الخط .

أمامكم الساسة والقادة والزعماء والعلماء والمصلحون فى كل أمة ، هل تغنى عنهم علومهم وعقولهم عند الناس شيئا إذا لم يملكوا ناصية البيان فيقنعوا إذا كتبوا ويؤثروا إذا خطبوا ؟ كلا ! إن العالم من غير أدب معمل ساكن . وإن الزعيم من غير بيان تمثال صامت . وإن المصلح من غير بلاغ مصباح مطفأ .

لا بأس فى أن نيسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب ، ولكن البأس كله فى المدى الذى بلغه هـذا التيسير ، لا بأس فى أن نحذف الغث من التقديرات والتعليلات التى فلسف بها النحاة النحو ، وننبذ الأوجه الأعرابية التى بقيت فى اللغة أثراً من اختلاف اللهجات فى الجاهلية ، فبلبلت الألسن . وهوشت القواعد ، وجعلت كل صواب خطأ وكل خطأ صوابا ، ولكن البأس كله فى أن نجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح .

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان . وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان ، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب . وإن استطاع يوما أن يجيز امتحانا أو ينيل شهادة ، فلن يستطيع أبداً أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر ، كمحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والمنفلوطى والبشرى ، وَلا أمثال من خرجتهم دار العلوم كجاويش والمهدى والخضرى والسكندرى والجارم ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء كأحمد أمين وعبد الوهاب عزام والخولى ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة المعلمين العليا كالمازنى وشكرى وأحمد زكى وفريد أبو حديد ، ولا أمثال

من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد والرافعي وشوقي وحافظ في مصر ، وكالبستانيين واليازجيين والشدياق ومطران والخوري في لبنان ، والمغربي وجبري والطنطاوي والأفغاني في سورية ، وكالرصافي والزهاوي وكاشف الغطاء والراوي والأثري في العراق ، وكالنشاشيبي والسكاكيني وغيرهما في فلسطين .

هذه مخاوف ألقاها في روعي ما أرى من ضيعة الأدب الحاضر بين تسامح القائمين عليه وزهادة الناشئين فيه ، والأمل في شيخ الأدب القائم عليه الآن في مصر ، وفيكم يا حماة العربية ودعاة العروبة في كل قطر ، ألا يتحقق من هذه المخاوف شيء ، ومناط هذا الأمل أنكم تؤمنون جميعاً بأن العربية هي عماد ثقافتنا ، ورباط جماعتنا ، وبأن أدبها هو التراث الروحي المشترك الذي يثور في دمائنا لننهض ، ويصرخ في آذاننا لنتحد ، ويشتد في حدائنا لنلحق .

إن الأدباء في كل أمة هم الذين يحملون شعلة الفن والفكر وينقلونها بالتتابع ، يسلمها السلف للخلف فيغذيها وينفخ فيها لتظل في طريق الأبد باقية نامية هادية وأدباؤنا الشيوخ وهم خريجو الماضي قد تسلموا شعلة الفكر العربي في أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا حضارتهم ليمدوها بوقود من عصارة الذهن ولا بقبس من نور الوحي ، فكادت تنطفىء ، ولكن الله قد أتاح لأدبائنا الذاهبين من مواتاة الملكات وتهيؤ الوسائل ومعاونة الظروف واستكمال الأداة ما مكنهم من إذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها بالزيت والكهرباء ، وجلوا نورها السماوي في بلور كالكواكب الدري ، فتألق سناها وتنشر هداها . وهاهم أولاء يكادون يسلمونها لشباب الغد خريجي هذا الحاضر ، فليت شعري ماذا تصنع بها الأحداث ، وماذ يخبيء لها القدر ؟

أنا بالرغم مما أتوجس من المخاوف متفائل لأن الله سبحانه الذي يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، قد ضمن للعرب بقاء البيان ببقاء القرآن ، وفي هذه القلة البارة من أدباء الشباب في أقطار العروبة نرجو أن يحقق الله وعده ، وإن الله لهو خير الصادقين

الأدب الحائر بين الجمال والسوقية(١)

نطلب المستحيل إذ نطلب أن تظل الأشياء - إنسانية وغير إنسانية - ثابتة لا تتغير ، ساكنة لا تتحرك ، باقية لا تتطور ، من الحمق أن نكلف الأيام ضد طباعها :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

لا أقول أن الجمال قد مضى عصره وانقضى أجله ، فان الجمال حس إنسانى ، قد يقوى أثره فى بعض الناس ، وقد يضعف عند البعض ، ولكنه كائن فى كل نفس بشرية ، وإنما الحق أن الجمال قد تطغى عليه بعض عوامل مصدرها البيئة والضرورة، ومثل ذلك أن المدن الحديثة قد ذل فيها حس الجمال، طوعا للضرورات الاقتصادية، ففى بعض أحياء من المدن ، قضى على الشجرة الجميلة والزهرة اليانعة ، وضحى بضوء الشمس ، ونور القمر ، والسماء المرصعة بدرها ، فى سبيل تلك الكتل الضخمة التى نسميها العمائر ، تلك الكتل المقامة من حديد وصخر ، والتى لا تستبين فيها من أثر الجمال شيئا ملحوظاً ، ولا علة لوجودها إلا أنها ضرورة اقتصادية قد نشأت بيئة جديدة ، كان الجمال أول ضحاياها .

ثم انظر إلى المعانى الروحانية ، وكيف استخفت ، بل كيف توارت وولت هاربة ، أمام هدير المادية الطاغية . ارجع قليلا إلى الروحانية فى الدين وفى الأخلاق وفى الحب وفى المعاشرة وفى الصداقة ، بل وفى كل المعانى الإنسانية التى تنعكس ظلالها على الحياة فردية أو جماعية ، تجد أن الفكرة المادية والمطمع فى المال وفى حطام الدنيا ، قد رد الإنسان كائنا جديداً ، ولكنه كائن ضعف، فيه كل عامل روحانى ، حتى لا أكاد أشعر بأنى غير بالغ إذا قلت إننا الآن لا روحانيين .

فاذا كانت المادية - ولا أنكر أن لها ضربا خاصاً من الجمال تكفيه البيئة

(١) بقلم إسماعيل مظهر .

والضرورة ـ قداشتد طغيانها على الجمال وعلى الروحانية ، حتى استخفى الجمال وذلت الروحانية ، فكيف بى أطلب الأدب أن يتجه نحو الجمال أو يدرج على الأسلوب الروحانى ، فى بيئة أساسها المادة الصرفة ؟

على أنى لا أنكر مع كل هذا أن الأدب يتألف من عدة عناصر ، أهمها الجمال والروحانية والمطابقة لمقتضى الحياة ، ولما كان الجمال والنزعة الروحانية ، كلاهما من عناصر النفس الثابتة ، وجب أن نسلم أن الأدب إذا تجرد من الجمال ومن الروحانية ، انحرف بطبعه عن أهم ما فى الحياة من مقتضيات ، وأصبح أدباً جامدا إن اتصل بالحياة يصفها ويعالج مشاكلها ويصور مستقبلها ، فانه يفقد مع هذا كله بواعث الحركة التى تدفع الجماعات نحو الغايات والمثل العليا . فلا مانع إذن من أن يلبس الأدب حلة مادية ، أو يتشكل فى صـــورة أو أخرى من صور الحياة . ولكن على شريطة ألا يفقد منزع الجمال . أو يضحى بالروحانية ، حتى لا يصاب بالجمود والظلامية

فلكى يسمو الأدب ، ولكى يؤدى الأديب رسالة ذات أثر فى الحياة ، ينبغى أن يعيش الأدب لنفسه بنفسه ، دنيا يعيش فيها وحده مستقلا عن دنيا الناس لا ترفعا عن الناس ولا انفصالا عن دنياهم ومشاكلهم وحاجاتهم ، ولكن خلوصا بفكره وميوله وبرسالته من التأثر بالسوقية التى التى يعيش فيها العوام والذوبان .

نعم ، أسلم بأن الأديب إذا أراد أن يؤدى رسالة ذات أثر نافع ، كان عليه أن يتجه بفكره إلى العوام وإلى الذوبان ، كان عليه أن ينزل إلى الشارع وإلى الزقاق ، وأن يستمد منهما موضوع دراسته ، كان عليه أن يتغلغل فى مشاكل الشباب والأسرة ، وأن يستوعب مبعث الجريمة ونفسية المجرمين ، كان عليه أن يدرس مشاكل الحكم وشكل الحكومة ، كان عليه أن يتعرف ما هو الفرد وما هى الجماعة .

ولكن إلى جانب هذا ، ينبغى أن يترفع بأدبه ورسالته ، حتى لا تطغى عليـــه نزعات العوام والذوبان ، أو حاجات الشارع والزقاق ! وما لم يترفع

الأديب عن ذلك ، انساق فى ركب العوام والذؤبان وفقد القدرة على أداء أية رسالة ، بل أصبح بلا رسالة ، بل أصبح متأدباً بأدب العامة ، وان شئت فقل أدبا عاميا .

ان ذلك العالم الذى يخلقه الأديب لنفسه وأدبه ، بعيدا عن منازع العوام ، وعن التأثر بالرأى السائد أو شكل الحكومة ، هو عالم الجمال الذى يعيش فيه الأديب ، هو عالمه الروحانى ، عالم لاسلطان على الأديب فيه إلا حرية فكره وانطلاق خيالاته ، عالم لا ينساق فيه مع ركب الناس أو ركب الأحزاب أو ركب الحكومة ، عالم يحقق الاديب لنفسه بنفسه فيه كل عوامل الاستقلال الفكرى والروحى ، عالم لا تقاليد تحكمه ولا نزعات تخضعه ولا مطامع تسيره ، عالم الحرية ، عالم الجمال ، عالم الروح .

إذا تحقق ذلك للأديب ، وواجب تحققه ليصبح المرء أديبا بمعنى الأدب ، أثمرت رسالته ، وما أثمرت رسالة من رسالات الأدب إلا على يد أديب عاش مستقلا فى عالم مستقل يخلقه هو خلقا . ليكون البيئة التى ينمى فيها أدبه ويتعهد رسالته .

إنما السوقية فى الأدب مرض يجب ان نعالجه ، مرض ينهك الأديب ويذل الأدب لنزعات السوقة والدهماء ، ذلك بأن النزعة السوقية تنزع الأديب من عالم الجمال الذى ينبغى أن يخلقه ليعيش فيه ، إلى عالم الناس ، إلى عالم رسالته مؤداة فعلا وواقعا ، فلا يكون له من رسالة يؤديها ، وما الأديب بلا رسالة ! انه ولاشك ذلك «الأدباتى» ، ذلك المداح ، ذلك المستجدى ، ذلك المتطفل على موائد الأدب .

محنة الأدب(١)

أثار الدكتور طه حسين موضوعا ذا خطورة ، فقال ان الأدب فى محنة والأدباء يمتحنون والفكر يرسف فى أغلال والناس منصرفون عن الثقافة العميقة إلى القراءة العابرة ـ إذا قرأوا . وقال الدكتور طه: إن الصحافة قلبت ظهر المجن (٢) فبعد ما كان الزمام فى يدها ترفع القراء إلى مستواها بما نبتدعه من ألفاظ وعبارات ومعان ، صارت اليوم متخلفة فى هذا المضمار ، تنزل إلى منسوب القارىء وتخاطبه بلغته الفجة وتتملق أحاسيسه ومشاعره وذوقه ، فلم تعد الصحافة أداة تثقيف ، بل أصبحت أداة ترفيه وتزجية لأوقات الفراغ ، وما أكثر أوقات الفراغ فى هذا الشرق المرزوء . أما أن الأدب فى محنة ، فهذا أمر لا منازعة فيه ، تنطق به أرقام آلات الطباعة ، وهى أرقام صدق وحق . فالكتب ذات الدسم يطبع منها ـ إذا رأت الضوء عدد لا يتجاوز ألفى نسخة ، بينما القصص الرخوة تغمر الأسواق عامة يصطدم بها القارىء فى القطار وفى منعرج الطريق وفى الحانوت وفى الحديقة وفى كل مكان ترتاده الناس . وما دامت سوق الأدب بائرة تشكو قلة الإقبال وانعدام التقدير فالأدباء بالتالى فى محنة لا يعيشون من محصل علمهم ، ولا ينتفعون بثمار قرائحهم . يجوعون إذا أرادوا أن ينشروا بين الناس المعرفة ، ويحترقون إذا شاءوا أن يضيئوا السبيل المظلمة أمام السائرين فى الدرب ، وويل لمن أدركته حرفة الأدب ، فبعد قليل سيبيع ما عنده ليستطيع أن يسد رمقه ، أو سيمد إلى المرابى يده ليسدد ما تراكم عليه من ديون كثار .

---

(١) بقلم وديع فلسطين

(٢) يرجع الدكتور طه فى مقالة له نشرت فى الأهرام محنة الأدب إلى الرقابة على الحرية وإلى الأدباء والناشرين وإلى الصحافة .

والسؤال هو : من المسؤول عن هذه المحنة ، محنة الأدب وكان المنطق يدعو إلى أن تروج اليوم أسواق الأدب ويكثر روادها . ألم ترتفع نسبة المتعلمين فى هذا الشرق ارتفاعا كان ينبغى أن يصاحبه اهتمام بالأدب والعلم ؟ ألم تتقدم أساليب الطباعة تقدماً جعل من الأدب فناً رفيعاً فاختفت المدونات الصفراء البالية ، وانتهى عهد الطباعة الرخيصة ، وصار الكتاب زينة فى الدار ؟ ألم تحتضن الحكومات مجامع الأدب ؟ وألم تسخ على أعضائها بالمال والرتب ؟ وألم تفتتح الجامعات ومعاهد العلم فى كل مكان ؟

نعم ، لقد حدث هذا كله ، ولكن محنة الأدب لم تنته ، بل لعلها اشتدت وصارت ذات خطورة ، حتى إن رجلا كطه حسين ارتقى سلم المجد حتى صار أديباً فى الصدارة وصار وزيراً فى الوزارة، بات يشكو ويتذمر من محنة الأدب فى هذا الأوان.

والمسؤولية عن هذه المحنة ، فى اعتقادنا ، مسؤولية موزعة لا يحمل وزرها جانب واحد ، ولا تقع تبعتها على ناحية بعينها . فهى مشكلة متعددة الجوانب ، الحكومات مسؤولة عنها ، والجامعات تشارك فى هذه المسؤولية ، والصحافة تحمل جانباً من الوزر ، والاذاعة والملاهى هى من أسبابها ، والأدباء أنفسهم يحملون التبعة ، والقراء بجمهرتهم ساهموا فى خلق هذه المحنة

فالحكومات تريد الأدب حكومياً . لها أنصار ترتفع اسهمهم يوم يكون هذا الحزب فى الحكم ، وتختفى أسماؤهم يوم تدور الدائرة ويرتقى منصة الحكم حزب آخر، فأصبح الأدباء يفرضون على الحياة الأدبية فرضاً لا بحكم تمكنهم وتأصلهم وتعمقهم بل بحكم انتمائهم إلى عشيرة حزبية تتداول السلطة مع العشائر الحزبية الأخرى . وصار الأدباء يعرفون لا بأدبهم ولا بإنتاجهم بل بألوانهم الحزبية المختلفة التى تغلب على كل ما عداها من اعتبارات . ولهذا بات من المألوف أن نقرأ بين عشية وضحاها أن أديباً صار «أديباً كبيراً» أو أن واحدا من هؤلاء الأدباء الكبار صار بدوره بين عشية وضحاها من صغار المتأدبين

والحكومات تطارد الفكر فى جميع مظاهره وصفوفه، تطارده مكتوبا ومقولا، وتطارد رجال الفكر بما تفرضه عليهم من رقابة لا يجيزها القانون العام . فالأديب لا يستطيع أن يفكر إلا إذا فكر تفكيراً خاصا . ولا يستطيع أن يذيع بين الناس آراءه إلا إذا جامل .

وليس هناك مايوصف بأنه « رقابة رفيقة أورحيمة » فالرقابة أبداً كريهة تأباها النفوس ، وان مجرد فرضها كاف لتقييد المفكرين والكتاب فيكتبون فى حذر ويقولون نصف ما يريدون أن يقولوا ويتحايلون بما قد يخرجهم عن القصد .

والحكومات مسؤولة عن محنة الأدب لأنها بما تقيمه من حواجز ومتاريس فى وجه إصدار الكتاب واستيراده تعمل على قتل الأدب وصبغه بالصبغة المحلية البحتة. فأهون على المرء فى مصر أن يشترى كتاباً سويسرياً من أن يشترى كتاباً لبنانيا . أو مؤلفا من العراق أو من سوريا .

وما يصدق عن الكتاب ، يصدق على المجلة الأدبية ، وكان من نتيجة ذلك أن كف الباحثون عن احتمال عناء اقتناء الكتب ، وصاروا يقنعون بما يسهل مناله ، وماكل ما يسهل مناله تزكو مادته .

والحكومات مسؤولة عن محنة الأدب لأن الجوائز والمكافآت التى تقررها للأدباء والعلماء تمنح لاعن تقدير سليم ، بل عن مجاملة واكرام ، حتى صار كل من يسمونهم شيوخ الأدب ينتظر دوره فى المكافأة دون حرص على إجادة وتبريز .

والحكومات مسؤولة عن محنة الأدب لان المجامع الأدبية التى تؤلفها وترعاها هى مجامع للمظاهر لاتجمع خيار الأدباء . وحسبك أن تعرف أن مجمع فؤاد الأول اللغة العربية حرم من عضوية رجال مثل خليل مطران والياس انطون الياس وفؤاد صروف وخليل ثابت وإسعاف النشاشيبي وكامل كيلانى وسلامة موسى وعادل

زعيتر مع أن فضل كل من هؤلاء على اللغة يزيد بكثير عن فضل بعض من ينتسبون إلى عضوية هذا المنتدى العلمي .

والجامعات بدورها مسؤولة عن محنة الأدب ، لأن الجامعات انقلبت من دور للعلم والدرس إلى مجال للدعاية . فالسياسة عرفت طريقها إلى نفوس الطلاب فصار احتفالهم بها أكبر من احتفالهم بالدرس، والأساتذة صاروا يتنافسون على العمادة وعلى تأليف العصبيات والأنصار فاختفت الروح العلمية وحل محلها روح تجارة يبرأ منه العلم الصحيح .

وصار هم الجامعات كهم المصانع فى أميركا ، تنتج إنتاجاً ضخماً ولو كان ذلك على حساب الجودة والكيف . ولهذا لايكاد الطالب يغادر معهده حتى يحرق كتبه ويصدف عن الدرس والإطلاع ليتفرغ لوظيفة حكومية أو عمل يكسب منه المال . حتى الأطباء صاروا لايقرأون ولا يتابعون البحوث العلمية الحديثة ، ومن الحقائق البدهية أن الطب يتقدم والعلم فى حلبة سباق دائم وإن لم يتابع الطبيب مواكب العلم فقد صارت بضاعته عاجزة عن المنافسة .

والجامعات مسؤولة عن محنة الأدب ، لأن أساتذتها صاروا يتحدثون عن «كتب مقررة» يؤلفونها ويتاجرون فيها بأثمان يفرضونها ويغالون فيها . وليست الجامعات كالمعاهد الثانوية لها برنامج محدود ومقرر مطبوع ، إنها ـ كاسمها ـ جامعات للعلوم والمعارف من أشتاتها لاحدود لها ولا لعمقها قرار

والصحافة مسؤولة عن محنة الأدب . فقد اختفت آثار الأدب من الصحافة اليومية والصحافة الأسبوعية ، وأصبح رسل الصحافة حريصين على الخبر والصورة دون غيرهما . ولهذا لاتكاد الصحف تشير إلى المطبوعات الحديثة إلا من باب الإعلان ، ولا تتحدث عن المذاهب الأدبية المعاصرة إلا إذا ورد عنها شيء فى البرقيات ، ولاتفسح مجالا للشعراء الجدد والمخضرمين إلا فى المناسبات المملاة المصطنعة ، ولا تكتب عن الأدباء إلا إذا صاروا فى ذمة التاريخ . فالصحافة تنأى عن الأدب وتطلقه طلاقاً بائناً ـ لعل له رجعة ـ والأدباء يجدون

أنفسهم غرباء إذا حاولوا أن يطرقوا باب الصحافة الأمامى أو الخلفى .

ثم إن الصحافة ـ على الأغلب ـ هى كما قال الدكتور طه حسين ، تنزل إلى مستوى القراء ولا ترفع القراء إلى مستواها ، فهى صحافة مقودة لاقائدة من العامة بدلا من أن يسيرها الخاصة . فلم يعد القارىء يتعلم من الصحافة اليومية ـ كما كان شأنها قديماً ـ بل صار يقرأ الصحف فى الترام أو فى المقهى أو وهو مستلق فى فراشه ، فلا يجهد نفسه ولا يعمل فكره . وإذا شاء صحفى أن يعالج أمور السياسة بشىء من البحث الجدى ، قيل له إن هذا موضوع جاف لا تهضمه معدة القارىء وهى معدة رقيقة يدميها لمس النسيم . وإذا عالج الصحفى موضوعاً علمياً له شأن بالحياة السياسية ، كموضوع الذرة مثلا ، قيل له إن القراء يحبون أخبار ممثلات السينما وراقصات « الفولى بيرجر » وأحاديث المخرفين من المستوزرين والمدجلين السياسيين .

والصحافة مسؤولة عن محنة الأدب لأن القصص التى تنشرها فى الحين بعد الحين هى إسفاف بذوق القارىء الذى اعتاد الآن ألا يستطيب قصة إلا إذا استثارت شهوته وإلا إذا كان قسطها من العربدة موفوراً .

والإذاعة والسينما مسؤولتان عن أزمة الأدب ، لقد صار الناس يؤثرون الأغنية والرقصة على قراءة كتب الأدب واستيعابها . والإذاعة تنقل إلى الناس فى كل يوم الواناً من أسباب الترفيه والترويح تغرق فيها كل محاولة تبذل للتثقيف أو للتوجيه . فالآذان تتقاطر على الإصغاء إلى أغانى الهوى والعشق وتصد عن الإصغاء إلى أحاديث الأدب وقصائد الشعراء . فقد آذت الإذاعة آذان المستمعين ، وعودتها على القناعة بالموسيقى والغناء ، فليس من عجيب أن تصاب الآذان بصمم إذا كان هناك حديث أدبى أو محاضرة فى موضوع ثقافى حيوى .

والسينما فعلت مثل مافعلته الاذاعةوأكثر منه . لأنها تعتمدعلىالصورة الناطقة التى هى أفعل فى المرء من الكلمة المطبوعة أو المسموعة . وليس للسينما مدارس أو معاهد يتخرج فيها كاتبو القصة والحوار والمخرجون والممثلون . كلا

فباب الاجتهاد فيها مفتوح يدخل منه كل من يتوسم فى نفسه الموهبة . والواقع أن المستوى العام للسينما فى الشرق شديد الانخفاض إذا قوبل بمثيله فى الخارج ، والسبب الأول والأكبر لذلك هو أن السينما عندنا تتملق الجماهير ، أما عندهم فانها تسمو بأفكار الجماهير حتى فى الافلام التى عمادها الفكاهة .

والادباء أنفسهم لا يبرأون من التبعة فى محنة الأدب ، لأنهم متفرقون لا يعرفون كيف يدافعون عن حقوقهم أو يرعون مصالحهم . فحتى الآن لم يوضع فى أى قطر عربى تشريع يصون الملكية الادبية بحيث يطمئن الاديب أو المؤلف إلى أن القرصنة لن تنال إنتاجه الأدبى وحتى الآن لم يعمل الادباء فى هذا الشرق على التعاون بحيث تصير هناك ألفة بين ادباء مصر وادباء سوريا وادباء العراق وادباء لبنان . فالتعصب الاقليمى لا يزال حتى اليوم من صفات أدباء الشرق . وتأخذ بعض هؤلاء الأدباء مظاهر الشهرة فيتشامخون ويستكبرون ويرفضون أن يثنوا على العمل الادبى الجيد الذى يقوم به غيرهم .

والادباء يميلون فى بعض الأحوال إلى تقارض الثناء أو تبادل النقد الجارح ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك توضح أن الموازين المنصوبة لقياس العمل الادبى تتأثر كثيراً بالهوى .

والادباء مسؤولون عن محنة الادب لأنهم يرتضون فى حالات كثيرة أن يكونوا مؤتمين بامام من رجال السياسة أو النفوذ . وبدلا من أن يتملق المسؤلون الادباء — كما كان الشأن قديماً — اصبح الادباء هم الذين يتملقون ذوى النفوذ ويضفرون لهم أكاليل المجد ويسبغون عليهم النعوت التى لا هى لهم ولا هم يستحقونها .

والقراء مسئولون عن محنة الادب ، فلو كان ذوق القارىء واستعداده كذوق القارىء الأميركى أو الأوربى واستعداده لما كانت للادب محنة، ولما شكا منها الدكتور طه حسين كما يشكو منها غيره من الادباء المعاصرين . ولكن كيف نلوم القارىء وقد أعده المجتمع إعداداً لا يستطيع معه إلا أن يسىء الاختيار ويسف فى الذوق . فالحالة الاقتصادية والتربوية والثقافية والاجتماعية والسياسية تحتم عليه ألا يقرأ إلا ما كان للترفيه وقطع الوقت .

جناية الأدباء[1]

كانت أمسيات الصيف كثيرا ماتثقل على كاهلى فلا أدرى كيف أخلص من ساعاتها الطويلة المديدة التى تسبق النوم ؛ لذلك كنت أطيل التردد على السينما فى دورها الصيفية المكشوفة ، حيث « أقتل » قتلا من مسائى ثلاث ساعات أو أربعا . ألهو فيها عن نفسى بما أرى على الشاشة ، وكان معظم الأفلام التى عرضت فى تلك الدور المكشوفة التى قصدت إليها وقصد إليها ألوف كثيرة جدا ممن هجروا ديارهم فراراً من حرارة الصيف ، كان معظم هذه الأفلام عربى التأليف والتمثيل .

وإنى لأشهد الله أنى ماعدت من هذه الأفلام العربية ليلة إلا ضيق النفس بما قد رأيت ، آسفا لهذه الهاوية التى نعيش فى ظلماتها فنا وذوقا وتمثيلا وإخراجا ، ثائرا على أدبائنا الذين غضوا أنظارهم عن هذه الصفحة البيضاء التى فتحت لهم صدرها رحبا ليملأوها بنتاج أفلامهم ؛ غضوا عنها أنظارهم ، فانتهبها أصحاب الأذواق الفجة السقيمة ، التى لاتميز بين طيب وخبيث ؛ أستغفر الله ، بل لعلها تميز بين الطيب والخبيث تمييزاً تستطيع به أن تمحو الطيب كله وأن تثبت الخبيث كله .

ولست أقصد بالخبيث هنا خبيث الأخلاق كما قد تراءى لكثيرين ممن تعرضوا لنقد أفلامنا العربية ؛ لأنى رجل لا أبالى فى الإنتاج الفنى بالأخلاق طيبها وخبيثها على السواء ، بل لا أكاد أفهم اللغة التى يتحدث بها الذين ينقدون الفنون على أساس الأخلاق ؛ ماذا عساهم يريدون بالخير الأخلاقى أو الشر الأخلاقى ، يقولون فى نقدهم لإنتاج فنى إنه خير أو إنه شر ؟ إن الكاتب الذى يصور ملاكا رحيما بارعاً كالكاتب الذى يصور شيطانا رجيما تصويرا بارعا ... أم تراهم يقصدون

---

(١) بقلم : الدكتور زكى نجيب محمود

بكلامهم عن الخير والشر فى الإنتاج الفنى ، مايبثه هذا الإنتاج فى نفوس الناس من تعاليم الأدب ، فالأدب الخير عندهم هو ما علم الناس أخلاقاً تواضعنا على اعتبارها رفيعة سامية ، والأدب الخبيث عندهم هو ماعلم الناس أخلاقا اتفقنا على اعتبارها دنيئة ؟ لو كان هذا هو ما يقصدون اليه بنقدهم ، إذن فالطامة أكبر وفهمهم الأدب أبعد جدا عن الفهم الصحيح ، لأن الأدب الذى يعلم الناس شيئا ليس من الأدب فى كثير . وربما كان من الأدب فى قليل ضئيل ؛ فلم يخلق الله الأديب ـ أو رجل الفن بصفة عامة ـ أديبا أوفنانا ليقف من الناس معلماً وواعظاً ؛ بل خلقه أديبا أو فنانا ليحاكى الطبيعة فى خلقها للكائنات ، فيضيف إلى خلقها خلقاً جديداً من نوع جديد ... لكنى لا أريد استطراداً فى هذا ، فما أكتب الآن لأوضح رأيا فى طبيعة الفن ، بل أكتب فى خاطرة كانت تتردد على رأسى كلما قصدت دارا من دور السينما التى تعرض أفلاما عربية .

أعود فأقول إنى لم أرد بالخبيث خبيث الأخلاق . حين ذكرت عن أصحاب الأفلام العربية أنهم يثبتون على شاشتهم كل الخبيث ذوقا وفنا ولا يفسحون للطيب من تلك الصفحة البيضاء مكانا كبيراً أو صغيراً .

فالله أعلم منى بطبيعة هذا الذوق الذى يبيح لصاحبه أن يحشر فى القصة الواحدة ـ وكل قصة مما تعرضه الأفلام العربية ـ كل ماتحويه الأرض والسماء من الحوادث الضخمة الغليظة . التى تكفى كل حادثة منها عشرين قصة حتى يتم تحليلها ... فلا بد عند الكاتب الذى يكتب للسينما المصرية . أن يكون فى القصة الواحدة يتم وتشريد وزواج وطلاق وغدر وخيانة وتهتك فى المراقص والملاهى بالنسبة للأغنياء . وعفة وأمانة بالنسبة للفقراء ، فلا أذكر أنى رأيت فلما واحدا يخلو من شاب غنى ذهب إلى مرقص فأحب راقصة بعد أن أراد العبث بها فردته عن العبث الحرام . ولما أراد الزواج منها وقف له أبوه الغنى حائلا بينه وبين من أحب ؛ ثم لا بد أن تكون هذه الراقصة قد لجأت إلى الرقص عن طلاق أصاب أمها ، أو عن موت حرمها والداً ، فاضطرت إلى الكسب عن هذا الطريق ... وأنا أعيش فى مصر

كما يعيش هؤلاء الكتاب الذين يكتبون القصص للسينما المصرية ، ولا أعلم أين أجد مايجدونه بهذه الكثرة من أمثال هذه الحوادث ؟ فكيف تقصوا أنباء هؤلاء الراقصات فعلموا أنهن جميعاً لاجئات من جوع وتشريد ؟ وأن واحدة منهن لم تلجأ إلى الرقص عن هواية وفن ؟ لكن على رسلك ! فإلى من توجه هذه الأسئلة ؟ أتوجهها إلى أصحاب القصص السينمائية العربية ، زعماً منك بأنهم أدباء يعلمون ماذا يصنعون ، وهم أنفسهم لايدعون لأنفسهم هذا الذى تلصقه بهم رغم أنوفهم .

هل يعلم أصحاب هذه القصص التى تعرض على شاشة السينما ، أنهم يصورون بقصصهم أغلظ الأذواق الهمجية ، إذا يقصرون تصويرهم على الحوادث الصارخة التى تتلاحق تباعاً كأنها سيل من القنابل المتفجرة ؟ فصاحب الذوق الهمجى البدائى وحده هو الذى يميل إلى هذا الصراخ كله كى يصحو من نعاسه ؛ وهو وحده الذى لا يطمئن فى ألوانه المختارة إلى الهادىء الخافت ، ولايطمئن فى حديثه إلى الصوت الخفيض ، ولا تكفيه فى حياته اللمسات الخفيفة ؛ أما من أصاب شيئاً من تحضر وتهذيب ، فتراه هادىء الطبع لا يرتاح إلى زعيق فى الصوت أو ضجيج فى الحركة ، أو صراخ فى اللون ؛ وحسبه إشارة هامسة إذا أردت له يقظة والتفاتاً . ولا أحسبنا من همجية الذوق بهذه الدرجة كلها التى فرضها أصحاب الأفلام العربية .

إنه لا عجب أن نرى الأفلام العربية كلها صورة تكاد تكون واحدة لا جديد فيها ، صورة واحدة تتكرر ، بحيث تستطيع أن تعلم فى يقين أو شبهه أى الحوادث أنت راء على الشاشة قبل أن تعرض القصة ؛ لأن كل واحدة من هذه القصص تحيط بحوادث الدهر كلها ، لاتدع منها شيئاً إلى قصة أخرى . . . وهل رأيت فلماً واحداً قد قصر نفسه على فكرة واحدة يعرضها بظلالها وأضوائها ، كهذا الذى نشاهده فى الأفلام الأوربية والأمريكية الجيدة ؟

لكن فيم هذا اللوم كله والنقد كله ؟ إنما ينصرف اللوم إلى أدبائنا الذين جنوا

على أدبهم وعلى الناس جناية كبرى ، إذ تركوا ميدان الشاشة السينمائية لسواهم من غير ذوى الفهم الأدبي والذوق الفنى ؛ ولعلهم تركوا شاشة السينما لغيرهم ، لأنهم نفضوا أيديهم من القصة والمسرحية جملة واحدة ، إذا استثنينا حالات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة .. إن كبار أدبائنا يكتبون ، ولست أدى والله فيم يكتبون ، إذا كنت تلتمسهم فى ميدان القصة والمسرحية فلا تكاد تعثر لأحد منهم على أثر ؛ كأنما هم لايعلمون - مع أنهم خير من يعلمون - بأن العالم كله لايكاد يعرف من الأديب الكبير إلا كاتباً لقصة أو منشئاً للمسرحية .

أدباؤنا الكبار فى شغل عن القصة والمسرحية بما يكتبونه للصحف اليومية والأسبوعية من مقالات يذكرون فيها نتفا وعجالات عن السياسة والاجتماع ؛ وإذا قلنا إنهم فى شغل عن القصة والمسرحية فقد أوشكنا أن نقول إنهم فى شغل عن الأدب .

كيف يجوز لأدبائنا الذين هم فى الطليعة ، أن يزعموا لنا أو لأنفسهم أنهم يصورون آمالنا ومخاوفنا إن كانوا لا يخلقون لنا بأدبهم أشخاصا تتجسد فى سلوكهم هذه الآمال والمخاوف ؟ هل يجرؤ أديب واحد من هؤلاء الكبار أن يدعى بأنه قد صور الرجل من الطبقة الوسطى الفقيرة بمثل ما صوره ممثل لم يكن ينتمى إلى طائفة الأدباء ، وأعنى به المرحوم نجيب الريحانى ؟ هل يجرؤ أديب واحد من أئمة أدبائنا أن يدعى بأنه قد صور الفساد الذى كان والذى نرجو ألا يكون ، فى شخص أو أشخاص أحسن خلقهم وتصويرهم ؟ .

أليست فضيحة ثقافية كبرى أن تسألنى : ما أبرز السمات التى تميز الأدب الإنجليزى اليوم ، فأجيب ، وأن تسألنى السؤال نفسه عن الأدب المصرى فلا أستطيع الجواب ؟... إنها فضيحة ثقافية ، لا لأننى أعجز عن تحليل أدبنا المصرى المعاصر ، فأعجز عن إخراج سماته وخصائصه ، بل لأنى أبحث - حين أبحث - عن الأدب الممثل لنا اليوم فى قصة أو مسرحية فلا أكاد أجد من ذلك شيئاً ؛ إنك

إذا أردت تحليل الأدب الإنجليزى أو الفرنسى ـ مثلا ـ لتستخرج خصائصه المميزة ، فلا تستعرض الصحف اليومية هناك التماسا لما تريد ، بل تستعرض كتبا وقصصا ومسرحيات . فما الذى أستعرضه هنا من كتب وقصص ومسرحيات لأخلص إلى الاتجاه العام الذى يشترك فيه كبار الأدباء عندنا .

إن أئمة الأدب فى شغل عن الأدب بما لست أدرى ؛ وهيأت لهم شاشة السينما مجالا فسيحا ، إذا أرادوا حقاً أن يتعقبوا حياتنا بالتصوير ، وأن يعرضوا على الناس قطعاً حية من نفوسهم وما يختلج فيها من خواطر ومشاعر ؛ لكنهم أجمعوا فيما بينهم ـ أو كادوا يجمعون ـ على أن يتركوا هذا المجال الأدبى لغير الأدباء ، فجنوا على أنفسهم وعلى الأدب وعلى الناس جناية لا يمحوها عنهم إلا غفران من الله ورحمة .

الأدب للشعب[1]

إن القارىء للمتنبى لتدهشه قوته الخارقة فى استنباط المعانى وتوليدها بحيث يحس أنه لو وزعت هذه القوة على عشرين شاعرا لأجاد كل منهم ، ولصار له اسم فى التاريخ . وقريب من هذا شوقى ولكننا نحس أن كليهما غريب عنا بل إننى أحس بأنى أقرب إلى المتنبى منى إلى شوقى . لأننى أجد فى الأول صورة الكفاح بين العرب والرومان فى عشرات من قصائده الرائعة ، أى أن له قيمة تاريخية عندى أبصر بها حركة التاريخ . ولكنه مع ذلك ينأى عنى حين أجد أنه لم يعرف «الجندى المجهول» فإنه حين يصف معركة انما يجعل بؤرة القصيدة أميره « سيف الدولة » الذى ربما لم يشترك بشخصه فى معركة واحدة . أما الجنود الذين كانوا يؤسرون ويقتلون فلم يكن يذكرهم . وصحيح أنى أعذره فى ذلك ، لأن الشعب لم يكن قد ارتفع إلى وجدانه . ولكنى مع عذرى له هنا ، بل لعذرى له هذا ، أجده غريبا عنى . أما بعد هذا فهو وشوقى سواء فى نظم الاكاذيب التى كان أولهما يمدح بها سيف الدولة والثانى الخديو عباس... والأدباء الجدد فى مصر قد أصبحوا بقوة ما تسلل إلى قلوبهم من الثقافة العصرية ، يحسون أن الشعب هو الجندى المجهول الذى يجب عليهم أن يرفعوه إلى المستوى الفنى والاهتمام الذهنى فى القصة والشعر والرسم والنحت ويكتبوا عن حياته ويرسموا أهدافه وما فيه من عبقرية أو إنسانية ، وليس معنى كلمة «الشعب» أولئك البائسين فقط كما هو الوهم العام فان الموظف والطبيب والصحى والمحامى والقاضى ، كل هولاء عاملون يعملون برءوسهم كما يعمل الصانع بيده فى مصنعه أو الفلاح فى مزرعته ، ومنهم المخترع ، كما أن منهم العبقرى فى حبه أو فى صلاحه ، والمكافح فى فلسفته أو فى إنسانيته .

وهنا نحتاج إلى كلمات جديدة تعين لنا المعانى الجديدة فى هذا الموضع .

---

(١) بقلم : سلامة موسى

إن الأدباء الجدد يطلبون أدبا عضويا يرتبط بالمجتمع ويؤدى فيه وظيفة حيوية بحيث يساعد على أن تسير الحياة الاجتماعية وفق الشرف والإنسانية والخير ومكافحة الشرور ، شرور الاستبداد والاستعمار والفاقة والمرض والخبث والدعارة .

والأدب هنا عضوى من حيث إنه يؤدى فى الجسم الاجتماعى خدمة معينة كما تؤدى اليد أو القدم خدمة معينة للجسم البشرى .

وبمعنى آخر ليس هو أدب الترف أو التسلية الذى يمكن الاستغناء عنه .

أى ليس هو أدب البلاغة ، كما فهمنا من معنى هذه الكلمة فى كتب البلاغة العربية . فهو لا يبالى تلك النبرات والنغمات إلا بمقدار ما يستطيع أن يؤدى لها خدمته أى عضويته فى النشاط الاجتماعى . فالبلاغة هنا وسيلة وليست هدفا ، فالأدب العضوى موضوع وهدف ، أما الأدب البلاغى فليس له موضوع أو هدف ، هل كان لشوقى موضوع أو هدف . إنى أفهم أنه كان لبيرون ، وشيلى ، وأندريه جيد ، واناطول فرنس ، وبرنارد شو ، و ه ج ولز ، ومكسيم جوركى ، موضوعات وأهداف .

ولكنى حين اقرأ هذه الصفحات التى تبلغ ثلاثة آلاف أو أكثر من كتاب الأغانى لا أجد موضوعا أو هدفا . وإنما أجد حلويات لا تغذو الذهن الناضج ولكنها تروح وتسلى بالنبرة والنغمة والنكتة والنادرة . ذلك لأن المؤلف كان يكتب للأمراء والأثرياء والملوك ، وكان يحس أنه يخدمهم ويسليهم ويقدم لهم ترفا . أما الأديب العصرى فيحس أنه يخدم ولكن خدمته قيادة وإرشاد ونور ، ووجد يؤلم ، وطرب يرفع نحو الشهامة والنبل ؛ والأدب العضوى هو محاولة أو محاولات لا تنقطع لزيادة الوجدان ، حتى يجد القارىء نفسه بعد ذهول ، وحتى يتعقل بعد استرسال فى عاداته الذهنية ، أو بعد استسلام لمكانه الاجتماعى . وهو أيضا محاولة لزيادة الإحساس حتى يزول التبلد الذى يطغى بقوة الجهل على كثير من أبناء الشعب ، ولذلك يحاول الأديب أن يجلو مشكلة اجتماعية غامضة او يكشف عن شقاء انسانى خفى قد لا يدريه الأشقياء انفسهم ، الذين يعانون هذا الشقاء . او هو يتناول العادات الاجتماعية او الذهنية السيئة بالنقد والتوضيح حتى يكف الناس عنها .

أما الأدب البلاغى فهو لعبة للتسلية . ألسنا نقرأ الأغانى والحريرى ونوادر الـكتب الأربعة التى أوصى بقراءتها القيروانى ونحن نتلمظ بكلماتها الحلوة . . ثم لا يترك هذا الأدب شيئا فى نفوسنا ، فلا طرب ولا برنامج ولا كفاح ولا ثورة فى الروح ولا عزيمة للتغير . الأديب الجديد ، الأديب العضوى ، هو الذى يدرس الحياة ، ويحاول أن يجد نظرة جديدة لشئونها اعمق وأوسع من النظرة المألوفة .

الأدب الجديد هو أدب أولئك الذين كبروا ونضجوا فى الذهن والنفس . فلم يعد يغريهم كلام منغم ونكات بارعة بلا هدف كانت تنظم للتسلية ، وهم يحسون مسئولية إنسانية وضميراً عالميا . ولذلك ليس الأدب عندهم اهتماما فقط بل هو هم يتأكلهم ، ويعتصر منهم أعمق الأفكار وأحر الإحساسات . وهم مكالفون رأوا رؤيا التطور للخير والشرف . ولذلك هم دائبون فى مطاردة الحيوان الذى يحرص على الأنانية والقبح والثراء الجنونى والمباراة الوحشية والنهم الجنسى .

الموضوع والهدف يعينان الأسلوب . ذكرت هذا وأنا اقرأ النقد الحق الذى تقدم به الدكتور طه حسين حين قال إن الأدباء الجدد لم يعودوا يعنون بجمال العبارة ولا بالتأليف الفنى . وهذا حق من وجهة نظره لأنه يعتقد أن الأدب ترف. لقد نال تشرشل جائزة نوبل فى الأدب وأنا أعرف تاريخ هذا الرجل الذى لم يحى قط حياة أدبية ولم يهدف قط إلى سلام ولم يدع دعوة الإنسانية . إذ هو امبراطورى . ولـكن لأنه أمبراطورى يقول بسيادة الإنجليز على غيرهم من البشر ويشيد بالحرب والاستعمار أجرى قلمه بأسلوب أمبراطورى كله قعقعة وجلبة ورصانة ووثاقة كأنه المتنبى فى النثر . وهو بليغ فصيح بحيث لا يستطيع رجل الشعب من الإنجليز أن يفهمه . ذلك لأن تشرشل ليس من الشعب وهو لا يكتب للشعب . تشرشل هو ابن اللورد تشرشل ، هو باشا انجليزى يكتب للباشوات الإنجليز أبناءهم . لأن هؤلاء هم بيئته ومجتمعه ، ولغتهم هى لغة كتابه التى نال بها جائزة نوبل . وفى هذه اللمحة إلى تشرشل ما يبعث على التفـكير : ذلك أن الـكاتب الذى امتلأت نفسه بهموم الشعب والذى يهدف إلى قراء من الشعب يجب ان يكتب

بلغة الشعب . لغة ديمقراطية ليست بالعامية طبعا ، لأن العامية لا تفى للتعبير . ولكن بلغة ميسرة تشق على العامية ، يستطيع جمهور الشعب أن يفهمها . انه لا يكتب لباشوات أو لوردات قد ورثوا تراث البلاغة مع الضيعة والقصر والسيارة والذهبية . لا . انه يكتب للنجار والطبيب والفلاح والبقال والمهندس وغيرهم ممن يعملون وينتجون . وهو يعالج همومهم واهتماماتهم فيضطر إلى أن يكتب بلغتهم .

ومع ذلك هل منا من ينكر قيمة الترف ؟ لا . ولكنى حين أتحدث عن غذاء للشعب لا تخطر ببالى الشكولاته ، لأن اهتمامى عندئذ هو توفير الفول المدمس واللحم والخبز . وبعد أن تتوافر هذه الضروريات نشرع فى الحديث عن الشكولاته وأطعمة الترف الأخرى . هل كان فاروق يحيا على الشكولاته فقط ؟ لعل شخصيته الفشوية وجثمانه المترهل يعودان إلى هذا . .

لقد تكرر الحديث بشأن الأدب وتشتت . ولذلك نحتاج إلى تلخيص العناصر البارزة فيه فيما يلى .

الأدب طعام يغذو الشعب وليس حلوى يستطرفها الأمراء والأثرياء والكسالى والمنهوكون . وهو كفاح يقوم به الأديب كى يبعث التفكير والعمل ، أى أنه ليس ترفاً للذة والاسترواح . والأديب المصرى العصرى يجب لذلك أن يخوض غمار الأدب بروح الكفاح . وهو حركة انتهاضية نحو المستقبل ، وهو ولاء للانسان ، ولاء للتقاليد ، وهو أكبر من الصنعة . هو بناء الشاهقة التى تصدم السحاب ، وهو هندسة المدينة المثلى . ومعنى هذا أنه بناء للشخصية الإنسانية وليس نصائح الملوك على المائدة .

والأدب للشعب كله وليس لطبقة منه ، أى للانسانية .

ثم هو حياة يحياها الأديب تحوى التعاسة والسعادة والتضحيات والانتصارات ، ثم رؤياه فى فنه ، ثم التحقيق .

ولكن الأدب فى مصر يجب أن يضطلع بضع سنوات بمحاربة القرون المظلمة وهدم الأسوار التى تعوق حرية الفكر وبناء الشخصية ، هذه الأسوار التى كانت الحكومات الماضية ، بل كذلك المجتمعات ، تحرص على استبقائها وحمايتها لأنها تؤيد ألوانا من الرجعية تحتاج إليها لاستبقاء نظمها الاقطاعية القاسية .

ديمقراطية الأدب [1]

ماهو الأدب ؟ ماهى الديمقراطية ؟ سؤالان لم يستطع جوابا شافيا عنهما أحد من المؤمنين بالأدب ، أو المؤمنين بالديمقراطية ، على تعاقب الأجيال وتباين البيئات ، وتطور المذاهب الأدبية والاجتماعية خلال العصور . ولكن الأدب والديمقراطية – على ذلك – كلمتان تجريان على ألسنة الخاصة والعامة منذ أزمان عريقة فى القدم ، وإنهما لأكثر جريانا على الألسنة هذا الزمان الذى ارتقت فيه الحياة الانسانية رقيا أحل بعض الترف محل بعض الضروريات ، وأحل كل فرد فى كل جماعة منزلة من التقدير يرتفع بها مستوى الحياة الانسانية أو يهبط فى موازين الجماعات .

فالأدب والديمقراطية إذن كلمتان قديمتان حديثتان فى وقت معا ، عرفهما الإنسان على وجه ما منذ خطا أول خطواته إلى الحضارة ، ولم يزل يعرفهما ويتعمق مفهومهما شيئا بعد شىء وهو ماض فى طريقه لاستكمال أسباب الحضارة .

عرف الأدب أول ماعرف على أنه فن من فنون الجمال ، أو لون من ألوان الترف العقلى ، يتميز بخصائصه عن سائر ألوان الترف وفنون الجمال ، فهو ضرب من الموسيقى والغناء ، أو من ألوان البراعة فى السبك وحسن الأداء ، أو سبب من أسباب الحظوة فى بلاط بعض السادة والأمراء ، أو حيلة من حيل الفن للتعبير عن معنى جميل أو تصوير منظر فاتن أو تعليل ظاهرة من ظواهر الحسن والجمال ، أو تسجيل حادثة ذات خطر ، أو خاطرة ذات أثر ، فما هو الأدب بهذه المعانى جميعا؟ هل هو إلا فن من فنون الجمال أو لون من ألوان الترف ، على أن الأدب فى بعض عصوره الراقية – على

---

(١) بقلم : محمد سعيد العريان

مايصفونها ـ قد كان له أغراض غير ما أسلفت من أغراضه ، كان خطابه على على ألسنة بعض السادة أو بعض القادة ، للدعوة إلى حق أو النهى عن باطل ، وكان رسائل موجزة أو مستفيضة ، من بعض الأمراء إلى بعض المأمورين والرؤساء . وما كان الأدب بذلك ـ كذلك ـ إلا لونا من ألوان الترف ، أو ظاهرة من ظواهر الأرستقراطية الحاكمة ، لاتتصل بحياة الشعب الكادح ، ولاتؤثر فى وجدانه العملى تأثيرا يرتفع بمستواه الانسانى أو يهبط .

وكذلك ظل مفهوم الأدب فى أجيال متعاقبة ، قرونا بعد قرون . فى العربية وغير العربية من لغات ، لايكاد يجاوز هذه الدائرة إلا خطوة بعد خطوة فى السنين ذوات العدد ، حتى التقى فى هذا العصر بالحياة الإنسانية فى صميمها أو أوشك أن يلتقى ، فإذا هو فى حياة الناس عامل ذو أثر وإذا هو توجيه لهذه الحياة ، وتوجيه لهؤلاء الناس . وإذا هو ضرورة بعد ترف ، ودعوة إلى الكمال بعد دعوة إلى الجمال .

وكما عرف الانسان على هذا الوجه منذ خطا أول خطواته إلى الحضارة ثم تطور به ، كان ادراكه لمعنى الديموقراطية . فقد عرفها أول ماعرفها على أنها مذهب من مذاهب الحكم وصلة من الصلات بين الحكام والمحكومين ، أو بين السادة والذين يسودونهم من طبقات شعب الدنيا ، ثم تطور هذا الفهم لمعنى الديمقراطية على تعاقب الأجيال والقرون فاذا هى رأى ، او فن من فنون الجدل العقلى ، وكانت مذهبا من مذاهب الحكم ، ثم إذا هى تجربة عملية يراق على جوانبها الدم ، وكانت رأيا يشتجر حوله الجدل . إذا هى وعى وإحساس وفكرة وانسانية وكانت دماء واشلاء ، ثم إذا هى حكومة وبرلمان وتعاون بين الحاكم والمحكوم على الرقى بمستوى الحياة الانسانية وكفاح مشترك لتجنب المخاوف والآلام وتوفير الحياة الكريمة لكل فرد فى الشعب وإتاحة الفرصة المتكافئة لكل مواطن فى المرافق الوطنية العامة . وكذلك صارت الديموقراطية وجدانا إنسانيا عاما يرتفع بالمستوى العقلى العام للجماعات فوق اعتبارات الفقر والغنى والضعف

والقوة ، والصحة والمرض ، وفوق اعتبارات العرق والدم واختلاف المنشأ والبيئة . كذلك كانت الديموقراطية يوم بدأت وكذلك هي اليوم .

وهنا فى هذه المرحلة من مراحل الحياةالعقلية الانسانية ، يلتقى الأدب بمعناه العميق الواسع ، بالديمقراطية بمدلولها الوجدانى الرفيع ، فلايعود الأدب فنامن فنون الجمال أو لونا من ألوان الترف ، أو ظاهرة من ظواهر الأرستقراطية الحاكمة ، أوالمسودة ، ولكن فن من فنون المعرفة للسمو بمستوى العقل الانسانى ، ولون من الوان الاخوة الانسانية، وظاهرة من ظواهر الكفاح ، لتحقيق المثل العليا ، ويومئذ تشف الأبراج العاجية فلا تحجب حقيقة من حقائق الحياة عن ذى عينين ، ويتطابق الصوت والصدأ ، ويعود الأديب جزءاً من حياة القوم ، ويتعاون الفن والجمال على إبداع الصورة الكاملة التى تمثل الإنسانية فى مستقبلها السعيد .

وهذه هى ديموقراطية الأدب ، ونحن من هذه الغاية على الطريق .

يقول أديب من أدبائنا ، لا أسميه : إن ديموقراطية الأدب هى أن نكتب للناس بلغة الناس ، فلا نرتفع كثيرا عن مستوى الجماهير فى لغة الأدب ولافى موضوعه . ففلان ، وفلان ، وفلان من أدبائنا الكبار ليسوا عنده بالمنزلة التى تجعلهم فى صف أصحاب التوجيه الإنسانى ، لأنهم فيما ينشئون من فنون الأدب يلتزمون قواعد الأداء فى أسلوب رفيع يدق عن فهم العامة وأشباه العامة .

ما أشبه الديموقراطية - إذن - بأن تكون فى معناها وأهدافها - على مايرى - هى الهبوط بالإنسانية لا الصعود بها ، لأن الهابط أبدا أسرع خطا على المنحدر ، وأقوى على الجذب من الصاعد ، فهل يكون معنى الديموقراطية عنده هو المساواة ولو فى الدرك الأسفل ، وتكافؤ الفرص ولو فى الانحدار .

جميل ان تكون لغة الأديب وأسلوبه وفنه فى الأداء بحيث يحس مذاقها الملايين ذوات العدد من سوادالناس ، ولكن اجمل من ذلك ان يحس ذلك الأديب

توجيه الملايين ذات العدد إلى ماهو أرفع وأرق وأكمل ، لأن معنى الديموقراطية الحق ، هو السمو بالانسانية نحو كمالها ثم المساواة بين آحادها فى ذلك المستوى السامى ، فليست المساواة هى الغاية الأولى للديموقراطية ، ولكن السمو هو الغاية.

قد يزعم أديب آخر أن الديموقراطية فى الأدب ، هى أن تكون موضوعاته من صميم الحياة التى تحياها الطبقات الشعبية العامة، أو البيئات الدنيا ، ، فالقصة التى يكون بطلها مثلا أميرا من الأمراء أو سيدا من السادة ليست قصة ديموقراطية ، لأن القصة الديموقراطية - فيما يرى - هى التى تتناول مثلا حياة المعلم « دقدق » فى « درب المهابيل » ، أو « زقاق الطبالة » ، وهذا رأى يميل إلى جانب من الحق ، إن كانت كل غايات الأدب هى التصوير ، أو التسجيل ، ولكن غاية الأدب الأولى هى التوجيه ، لا التصوير والتسجيل ، وقد تكون القصة التى تمثل حياة أمير من الأمراء أو سيد من السادة ، يعيشان فى البذخ ، ويتبطران على النعمة ، فيها من التوجيه الديمقراطى لهذا السيد وأصحابه ، وللآلاف أو الملايين من الذين سودوه دون أن يعرفوا لماذا سادهم ، ما يكون له أثره الإيجابى فى الارتفاع بمستوى الجماهير والسمو بغايات الحياة ، وإذاً فليست الديموقراطية فى الأدب هى أن يكون موضوعها ديموقراطيا ، وإنما هى أن يكون توجيهها ديموقراطيا .

وإنى ليحضرنى الساعة مثل طريف . هومقال قرأته منذ زمن قريب فى إحدى المجلات ، لكاتب من أولئك الكتاب الذين يحرصون على أن يكون أدبهم ديموقراطى الموضوع ، أو ديمقراطى اللغة والأسلوب ، دون أن يعنيهم كثيراً أو قليلا الأثر التوجيهى أو الغاية . فقد أراد هذا الكاتب أن يصف جولة فى بعض الأحياء الشعبية بالقاهرة ، لعله «سوق السلاح» ، فقال بعد مقدمة موجزة ، إنه لم يكد يمضى فى ذلك الحى بضعة أمتار حتى تعذر على سيارته أن تسير ، لضيق الطريق فترجل ، ومضى يتصفح الأبنية والوجوه ، فشم روائح عفنة منتنة ، فأخرج منديله الحريرى المعطر من جيبه . فرفعه إلى أنفه .. أو كما قال ...

سيارة خاصة لا يتسع لها الطريق ، ومنديل حريرى معطر ، وأدب ديموقراطى؟ لست أنكر على ذلك الأديب أن تكون له سيارة خاصة ، وأن يكون فى جيبه منديل حريرى معطر يرفعه إلى أنفه ، حين يريد أن يستبدل رائحة برائحة ، ولكنى أنكر عليه أن يصف أدبه بالديموقراطية ، لأن موضوعه هو «سوق السلاح» ، أو « درب الحصر » ، أو غيرهما من الأحياء الشعبية الفقيرة . ثم ما ذكر السيارة الخاصة والمنديل الحريرى المعطر فى هذا المقام ، إلا أن يكون ذلك نوعا من المن بالإحسان . وما أعرف أحدا زعم أن المن بالاحسان نوع من الديموقراطية . إنى لأخشى أن يكون معنى الديموقراطية فى عرف بعض الأدباء هو الفقر ، فما أحراهم إذن بأن يسموا هذا النوع من الأدب ، الأدب الفقرى ، فذلك أقرب إلى الصدق من وصفه بالديموقراطية .

ويحضرنى مثل ثان : أديب آخر فى مصر ، يعالج القصة من بعيد ، ويحمله الإيمان بالديموقراطية ـ فيما يزعم ـ على أن يتخذ العامية لغة ، ولكنى لم أقرأ قصة من قصصه ، إلا كان بطلها أو كل شخوصها من طبقة خاصة من الطبقات الديموقراطية أو الطبقات الفقرية .

ليست الديموقراطية فى الأدب ـ إذاً ـ هى النزول بمستواه إلى العامة وأشباه العامة باصطناع لغتهم وأسلوبهم فى التفكير . وليست هى اتخاذ «الموضوع» من البيئات الشعبية ليس غير ، وإنما تتحقق الديموقراطية بالأدب ، حين تكون غايته هى التوجيه ، والارتفاع بمستوى الطبقات الدنيا إلى حيث تتحقق المثل الديموقراطية العليا . بالدعوة إلى الحرية والمساواة والأخوة الانسانية .

الأدب صورة من الأمة[1]

تحدثت فى حديث آخر عن شطر من مقومات الأدب القومى، ألا وهى الأخيلة ، وأن تلك الأخيلة إلى البيئة وما فيها من عادات وتقاليد مردها . فتحملها لغة الآداب شيئا من معناها لا ينفصل عنها، يأنس به المتكلمون ويهشون له ويرتاحون، لأنه جزء من ذات أنفسهم . قلنا إن اللغة الواغلة على البيئة يجب أن تتغذى بهذا الموروث منها لتنطق نطقا صحيحا سليما يخرجها عن بيئتها الجديدة وإلا عاشت أداة مزيفة ، وقلنا إن لنا أدبا مصريا قديما ، علينا أن نعنى بإحيائه ، ففيه إنعاش لما فى نفوسنا ، وأقول هنا إن علينا أن نلتصق ببيئتنا التصاقا أقوى لنقوى هذا الموروث ونمكن له ، فنضمن لأدبنا تلك الصورة التى أنشدها .

ولكن أين هى البيئة التى ستكون عدتنا بمظاهرها المختلفة ؟ وأين فيها مقوماتها المستقلة المتميزة ؟ أليست هى التى فقدت تلك اللفتة إلى تراثنا الماضى فلم تحفظ منه شيئا ، وهل ترى الناشىء منها ينشأ على حفظ كلمة واحدة من تلك الكلمات الكثيرة التى جرت على ألسنة من سبق ؟ فعشنا لا نعرف لكاتب أو شاعر ممن غبر قولا أو بيتا ، أوهل عنينا أنفسنا بأن نعرف طرقهم وأساليبهم ، أو نهجهم فى النظم . ذلك شىء أهملناه كله فقطعنا صلتنا بماض لا يزال فى نفوسنا قوة كامنة نحس منها صورا فى أدبنا العامى ، وما نحن بداعين إلى هذا الأداء ، ولكننا نريده - كما قلت - عربى المبنى مصرى المعنى .

نعم إن الجديد الذى أريده هو البيئة فى صورة مصرية ، والتى إن تهيأ تهيأ لنا ما يملأ الخاطر ويشغل اللب . فتصدر النفوس عنها متأثرة بها مشغولة بما فيها . تعال حدثنى عن مصريتك أين هى ؟ وأين الوحدة بيننا على شىء واحد ؟ إذا عنيت السماء وما خيمت والأرض وما أقلت فنحن على غير خلاف ،

---

(١) بقلم : إبراهيم الابيارى .

ولكن للبيئة فى غير هذين مقدماتها الكثيرة ، ثم نحن مع السماء والأرض لم نعن بأن ننعم النظر فى خصائص هذه ولا مظاهر تلك ، ذلك لأن دراستنا لها يعوزها الجانب القومى المفصل ، وما أحوجنا ونحن ننشىء الناشئة إلى إسهاب وتفصيل ، وأن يحيط كل منا علماً بما فوقنا وتحتنا إحاطة المبصر الواعى .

وإذا أردت دليلك على هذا فعد إلى أدبك تجده فى كثرة خلوا من هذه اللفتات ، فقيراً من تلك النظرات ، وليست علة هذا إلا ما ذكرت ، ثم إلى فقدان هذا الموروث من أدب من سلف الذى هو المدرس الأول لتلك الناحية ، والمورد الرئيسى لها ، فعلى ما عاش الآباء يعيش الأبناء وبمثل نظرتهم ننظر ، ولكننا ننظر ، بعيون كتاب الغرب وشعرائهم ، ونحس بإحساسهم .

وبعد هذا فالبيئة المصرية تتخطفها مدنيات مختلفة ، فما لنا إجماع بيئى على شىء بعينه . ننظر للأمم فنراها ذات مألوف متعارف فى مظهرها وعاداتها وتقاليدها ، فى البيت والشارع ، فى حركاتها وسكناتها . فى لباسها وما تطعم . ونلتفت إلينا فنجدنا شعبا موزعا فى ميادين مختلفة . فلا نحن متحدون فى لباس يجمع بيننا تمليه البيئة ويدل عليها ، ولا نحن على نظام واحد فيما نطعم ، فذلك تركى وهذا فرنسى وذاك انجليزى ، ولا نحن على تحية واحدة يستقبل بها بعضنا البعض ، فما تستقبل به هنا تستقبل بغيره هنـــاك ، وما يودعك به أحدهم لا يودعك به الآخر ، وما تعتاده فى مجلة تخطئه فى مجلة أخرى ، ويتجاور البيتان ولكن أحدهما ينطوى على مالا ينطوى عليه الآخر . وتستمع إلى الأغانى فلا تعرف أين مصريتك فيها ، وتنظر إلى تصوير المصور فلا تجد مقوماته المصرية .

تلك هى البيئة التى أريدها لقومى . أريد أن تطغى مصريتنا على كل شىء . أريد أن يجمع بيتنا زى واحد يحمل طابعا مصريا ، وحسبنا ما نعانى من تلك التفرقة . والتعد إلى نفسك لتعرف ما تجد حينما يجلس إلى جانبك من على غير زيك ، وهل تنسى ما تحمله طائفة لطائفة لا يفرق بينهما إلا المخالفة فى الزى ؟ أريد تعليما يجتمع عليه

أبناء الشعب ، فلا يختلفون إلى مناهل متباينة تنشئهم على المباينة والفرقة ، أريد بيتا يقوم فى مبناه ومعناه على متعارف من التقاليد والرسوم دنت أم علت ، أريد تبرئة الأغانى من تلك اللوثات فلا نجرى على منطوق الأجنبى ولحنه ، وما بشاق علينا أن نلتفت إلى ما لنا فنحييه ونصقله ونجمله ، أريد راسما يطبع رسمه ونقشه بطابع مصرى فيشيع لنا ما شاع لغيرنا وحمل طابعهم ، وإنى ليحزننى أن أقف أمام اللوحة فأصيح يابانية والله ، ولا أجد ما يبعث مثلها فى نفسى فأقول مصرية والله ، حين أقف إلى لوحات لنا كثيرة .

الكاتب المنتظر [1]

١ - فهم القرن التاسع عشر الأدب الواقعى على أنه تصوير لحياة الناس وملابساتها ، أو تعبير صادق عما يعصف بتلك الحياة من آلام وما يراودها من آمال .

وعلى أساس هذا الفهم ينقد بعض أدبائنا كل دعوة إلى الأدب الواقعى ، زاعمين أن ذلك الأدب طراز عفى عليه القرن العشرون ، وأن هناك مذاهب أخرى فى الأدب اعتنقتها الأجيال الجديدة على التعاقب ، وأن كل دعوة إلى التجديد يجب أن تكون دعوة للجديد دون العتيق !! ...

والمذاهب الحديثة التى يشير إليها أولئك المتأدبون هى الصورية والانطباعية ثم السريالية .

على أننا لا نرى تلك النزعات الغريبة إلا فى نكسات عبر عنها أناس منحرفون أقعدهم عجزهم عن التبريز فى الطريق السوى فالتمسوا تحقيق ذاتهم من وراء اعتناق كل غريب ملتو ، أما الذين يأخذون تلك النزعات مأخذ الجد ، فانهم لا يفرقون بين المذهب القويم ، وبين البدعة المنحرفة التى تعبر عنها قلة من المنحلين فى فترات الانحلال .

وأما الدعوة إلى الأدب الواقعى فهى ليست دعوة الى مذهب أدبى ، ولكنها دعوة إلى وضع الأمر فى نصابه . والأدب الواقعى ليس عقيدة جيل من الأجيال أو قرن من القرون ، ولكنه سجل التطور الإنسانى أجمع . وهو لا يجمدعلى حال ولكنه يساير التقدم الاجتماعى . وعلى ذلك فانه لم يعد يقتصر اليوم ، كما كان مقتصرا فى القرن الماضى ، على التعبير عن الواقع الظاهر تعبيرا صادقا ، ولكنه أخذ يعبر عن الواقع مشتملا على الصراع بين الفكرتين المتناقضتين ، أو العقيدتين

(١) بقلم : محمد مفيد الشوباشى .

المتناقضتين ، وتسجيل انتصار الجديد النامى منها على القديم الناكص على أعقابه . ولزيادة هذا القول إيضاحا نذكر أن كل حالة واقعية ، وكل فكرة ناشئة منها ، تشتمل على نقيضين ، أو على وجهتى نظر متناقضتين ، تحاول النامية منها التغلب على المنقرضة والحلول محلها . والأديب الموفق هو الذى يستطيع أن يلمح هذا الصراع الكامن وراء الظاهر، وأن يعبر عنه فيساعد بذلك التعبير على زيادة سرعة التطور حتى يبلغ هدفه .

فالأدب الواقعى لا يحاول اليوم أن يصور الواقع تصويرا آليا ، ولكنه يرمى إلى خوض غمار الواقع ، والمساهمة مساهمة إيجابية فى دفع التطور إلى الأمام ، والعمل بذلك على تقدم الإنسانية . وعلى ضوء ما تقدم يكون القول بأن الأدب الواقعى مذهب من مخلفات القرن التاسع عشر لغوا غير جدير بالالتفات إليه .

٢ ـ ومن المسلم أن الإنسان ابن جيله ، يتأثر به ويستقى منه معتقداته ونزعاته وعقائده . فهو لا يجىء بجديد من وحى خاطره سواء جارى جيله فى اتجاهات فكره أو عارضه فيها ، لأن الرأى المعارض ليس إلا وليد الرأى المعارض فيه . وليست عقائد الجيل ونزعاته الخافية والظاهرة إلا وليدة ظروفه وملابساته .

ولما كان الأديب لا يشذ عن هذه القاعدة ، فقد اختلط الأمر على بعض الناس ، وحسبوا أن الكاتب الذى لا يعبر فى كتابته إلا عن ذاته إنما يعبر بطريق غير مباشر عن مجتمعه ، ويرجع ذلك الحسبان الخاطىء كما هو واضح إلى ما ذكرناه من أن الإنسان لا يستطيع الانفكاك من تيارات المجتمع الفكرية والعاطفية . وعلى ذلك لا يكون هناك مبرر ، فى نظر أولئك السادة ، للتفريق بين مذهب الفن للفن ومذهب الفن للمجتمع .

ولذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى إيضاح ما لم يكن فى حاجة إلى إيضاح : فالأديب المصرى يفكر كغيره ـ ولا شك ـ بعقلية جيله حتى ولو استغرق فى ذاته

أو فيما يقرأ من المصنفات العربية القديمة أو الكتب الأجنبية ، لأن البيئة والظروف الاقتصادية وما يتولد عنها من معتقدات هى التى تطبعه بطابعها . فهو لا يفهم ما يقرأ وما يسمع إلا بعقلية جيله . . ولكن ليس معنى هذا أن الناس سواسية فى ميولهم وصفاتهم ومداركهم ، ونحن لا يعنينا فى هذا البحث عن تضارب خواطرهم وخوالجهم ، وأسباب ذلك التضارب ، إلا أن نسجل حقيقة واحدة ، وهى أنه يوجد فى العصر الحديث كتاب انطووا على ذواتهم وشغلوا بانفعالاتها الوقتية ، ومطالبها العاجلة ، ولم يعنوا إلا بتسجيل تلك الانفعالات والمطالب فى كتاباتهم المنثورة والمنظومة ، فهؤلاء الكتاب ذاتيون أثرون على الرغم من أنهم يفكرون بعقلية مجتمعهم ، يفهمون ذاتهم ويعبرون عنها بعقلية مجتمعهم ، وفرق بين هؤلاء وبين غيرهم من الكتاب الذين تحرروا من أنانيتهم وخرجوا من ذواتهم إلى مجتمعهم ، وشاركوه فى تبرمه بأسباب شقائه ، وتطلعه إلى تحسين ملابساته ورفع مستواه ... فرق بين من شغلوا بأنفسهم ، ولم يعنوا إلا بتصويرها والتعبير عنها ، وبين من شغلوا بمشكلات جيلهم ، ولم يعنوا إلا بتصوير ذلك الجيل فى كفاحه ، وبشد أزره وحفز همته فى سبيل الوصول إلى أهدافه . فرق بين من يعبر عن اتجاهات جيله الزائلة المندثرة وبين من يسجل مراحل تقدمه تسجيلا يرسم له الخطوات التالية . . فرق بين هؤلاء وهؤلاء على الرغم من أن كلا الفريقين وليد جيله ؛ وعقليته مطبوعة بطابع جيلها .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الصدد ؛ هى أن بعض المتأدبين يحسبون أن الكاتب الذى يعبر فيما يكتب عن ذاته يؤدى رسالة من يكتب عن المجتمع ، لأن التعبير عن ذاته هو تعبير عن ذات كل فرد من أفراد المجتمع : وفساد هذا الحسبان ظاهر كذلك ؛ لأن هناك فرقا بين أهداف المجتمع أو أهداف الأفراد مندمجين فى مجتمعهم ، وبين أهداف الأفراد متفرقين منطوين على ذواتهم ، منصرفين إلى مطالبهم الخاصة الموقوتة .

٣ - يحسب بعض الغلاة أن الأدب المصرى فى العصر الحديث منقطع الصلة

بالواقع ، غير معنى بما يعنى المجتمع ، ولكن الحقيقة أن نهضتنا الأدبية الحديثة التى لاحت بشائرها فى أعقاب القرن الماضى استهدفت أول ما استهدفت خدمة المجتمع ، وعنيت بتسجيل متاعبه . ولا ننكران أنها كانت متسمة بسذاجة الطفولة وهى لا تزال فى إبانها ، وأنها كانت ترسف فى قوالب عنيفة من أساليب الكتابة ، ولكنها أدت رسالتها على وجه يناسب ظروفها وملابساتها على أن التوسع فى نشر تراث الأدب العربى ، ثم فى ترجمة بعض المؤلفات الأدبية الأجنبية عرقل نشاط الأدب الأصيل الناشىء الذى لم يستطع الوقوف على قدميه أمام موجة تقليد الأدب العربى القديم والإجادة فيه ، ثم الاغتراف من مناهل الأدب الغربى ، وفى السنوات الأخيرة بدأ الأدب يحاول انتهاج الطريق القويم والتعبير عن خوالج مجتمعه .

ومع احتياج هذا القول المقتضب إلى شرح أسبابه ، وإيضاح تفاصيله ودعم ذلك بالأسانيد ، فقد اضطررنا إلى الاقتضاب لأن التمادى فى تبيين غوامض هذا الجانب من مقالنا يخرج بنا عن مضمونه الأصلى ، ومرماه الأساسى .

ولعل القارىء يجد فى بعض ما سنذكره فى السياق الآتى ما يلقى بعض الضوء على ما غمض من القول السابق .

يحسب بعض الأدباء أن نهضتنا الأدبية لا يمكن أن تقوم على أساس سليم إلا إذا رجعنا إلى تراثنا الأدبى العربى القديم ، فترسمنا خطاه واغترفنا منه ، ويحسب آخرون أن الرجوع إلى القديم نكوص على الأعقاب ، ورجوع بالأدب القهقرى فلا نهضة إلا إذا طوينا صحف الماضى ، وقضينا على الجذور التى تصلنا به . وأسسنا نهضتنا الحديثة على أسس من الأدب الأوربى الحديث .

لكن بعض التمحيص لابد أن ينتهى بنا إلى إدراك الخطأ فى هذين الرأيين . فنحن لا نستطيع أن نقطع صلتنا بالماضى ، ولا نستطيع أن ننهض بأدبنا إذا أعرضنا عن تراثنا الأدبى . ولكن هذا القول لا يعنى أن نغترف من ذلك الأدب أو نترسم خطاه ، أو نقلده ، أو نلتزم ما التزمه من قوالب وأوضاع . بل علينا

أن ندرسه لنقف على تاريخ أدبنا ، ونلم بمراحل تطوره ، لأننا لانستطيع أن ندرك الوضع الحاضر حق الإدراك إلا على ضوء تاريخه ... ثم إن اللغة أداة فاذا لم نطلع على أدبها فى مختلف عصوره ، ضعف إلمامنا بها ، وضعفت تبعا لذلك قدرتنا على التعبير الأدبى ، فالعناية بالأدب العربى القديم واجبة ، ودراسته لا غنى عنها لأى أديب يريد أن يؤدى معانيه على أدق وجه وأوضحه وأجمله . ولكننا نعود فنقول إن الإفادة من الأدب العربى القديم يجب أن تقف عند الحد الذى أشرنا إليه إى أن الأديب يجب أن يفيد منه تجارب السابقين ومعارفهم على ألا يحتذيهم بغير وعى ، أو يحصر مداركه ومعارفه فى القوالب القديمة التى انحصروا فيها ، فيعجز عن مسايرة التطور المتلاحق الخطى .

٤ - وإذا كان تقليد الكاتب المصرى الحديث لأدباء العرب القدامى ، سواء فى ذلك طرقه المواضيع التى كانوا يطرقونها ، أو ترديد المعانى التى رددوها ، أو توليد معان على غرارها ، أو التزام قوالب التعبير العتيقة فى أداء تلك المعانى . إذا كان هذا التقليد ينحرف بالكاتب عن الطريق الصحيح ، ويحول بينه وبين الاضطلاع بالمهمة المنوطة به ، فان تقليد الأدب الأجنبى لن يسفر إلا عن هذه النتيجة عينها ، وقد أسهبت مجلة الأديب المصرى فى شرح رسالة الأدب . فاذا نظرنا إلى أدب التقليد على ضوء ذلك الشرح سهل علينا الوقوف على قيمة ذلك الأدب الحقيقية .

ولكن ليس معنى هذا أننا ندعو إلى إهمال الآداب الأجنبية ، أو التقليل من أهمية نقلها إلى العربية ومن قيمة الإقبال على دراستها ، فان استزادة الأديب من ألوان المعرفة تزيد أفق فكره اتساعا ، وتهتك له أستار الظاهر الخادع ، وتمكنه من فهم الحياة على حقيقتها ، ومن تصوير الواقع المتطور تصويراً صحيحا مفيداً .

وبجمل القول أن الأديب المصرى العصرى يجب أن يلم بالأدب العربى فى مختلف عصوره ، وبالآداب الأجنبية فى تباين ألوانها ، على ألا يتخذ منها نماذج يقلدها أو يحتذيها ، فهو يفيد من تجاربه على قدر علمه بتجارب غيره وما أفادوا منها ،

وهو يفهم حقائق الحياة على قدر علمه بخبرة أهل الخبرة بها . وهو لا يدرك الحاضر على حقيقته إلا إذا وقف على الماضى ومراحل تطوره ، إن عليه أن يتخذ مما حصله من مختلف الثقافات وسيلة لا غاية . عليه أن يفهم الحياة بواسطتها لا أن يفهم الحياة مصورة فيها . وأن يتمكن منها ليكون أقدر على التعبير عن الحياة ، لا أن يستعير أساليبها فى تعبيره عن الحياة .

٥ – تقوم النهضات الأدبية كما يقوم غيرها من النهضات ، كلما تهيأت ملابسات ظهورها . وكل نهضة أدبية تظل صادقة فى تعبيرها عن الملابسات التى ساعدت على ظهورها حتى تتطور وتشرئب إلى زيادة الازدهار والنماء ، وهى لا تجد وسيلة لذلك إلا أن توسع دائرة معارفها . فتلتمس ذلك بالرجوع إلى مناهل جديدة للمعارف كانت غريبة عنها ، ومن ثم ينحرف اتجاهها فتجتاز فى أول الأمر مرحلة تقليد تلك المعارف الجديدة ، فاذا نال بعض ادبائها قسطا من المعرفة تملكهم الزهو والاعتداد بالنفس ، فتفردوا أو حسبوا أنهم متفردون ، وانطووا على ذواتهم واقتصروا على التعبير عن خوالجها الموقوتة ، وخواطرها المحدودة ولا يلبث الأدب الذاتى أن يزدهر فى تلك المرحلة . ثم يحدث التطور الأخير ، ويفهم الأدباء حقائق الحياة إذ يزدادون معرفة ، ويكتملون دراية وفهما ، فيعود الأدب عندئذ إلى التعبير عن ملابسات النهضة . ولكنه يختلف فى تلك المرحلة الأخيرة عما كان عليه فى المرحلة الأولى ولا يقتصر على تصوير قشور الحياة ، والتعبير عن ظاهر الأحداث ، ولكنه يصور حقائق الوجود متطورة إلى مراتب أرقى .

٦ – بقى علينا أن نتساءل عن المرحلة التى تجتازها نهضتنا الأدبية الحديثة . ولا أحسب أن الأمر يحتاج إلى تمحيص كبير لندرك أننا نشرف على المرحلة الثالثة، فاننا قد تزودنا بكثير من المعارف العربية والأجنبية ، ولكننا لم نصل بعد إلى الإفادة منها بالقدر الذى يفسح المجال لظهور الأدب الأصيل المرجو . فقد نرى بيننا أدباء نالوا قسطا من المعرفة تدانى ما ناله بعض أدباء الغرب ، ولكنهم لم يوفقوا مع ذلك إلى إبداع أدب بدائى فى أصالته وصدقه أدب حملة الأقلام الغربيين

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثيرون منا ، وراحوا يلتمسون لها أسبابا لا أحسبها تتفق والواقع .

ليس الأدب السليم محض موهبة كما يحسب بعض الناس ، وهو ليس وليد معارف يشحن بها الأديب رأسه . ولكنه ثمرة محاولات وتجارب للتعبير عن الحياة يفيد بعضها من بعض ، ويعين السابق منها على تقدم اللاحق ، ولا بد أن تهضم النهضة تجاربها حتى تسفر عن الأدب المرتقب ، والمعارف الأجنبية لا تخلق ذلك الأدب كما قلنا ، ولكنها تعين على سرعة ظهوره وازدهاره بما تضيفه من تجاربها إلى ذخر التجارب المحلية وما تحدثه فى الأذهان من توسيع آفاق التفكير ، وفى الصدور من تعميق أغوار الخوالج .

وليس هناك من يجحد أنه قد ظهرت بين أدبائنا طلائع اهتدت إلى الطريق السوى واستهدفت الغاية السليمة ، وأنها تبذل ما وسعت من جهد لتظفر بانتاج الأدب الجدير بنهضتنا ، ولكن هذه الجهود ستتلاحق وستعقبها جهود أخرى أنفذ إلى الهدف ، حتى يطلع علينا الكاتب الذى يستطيع أن يفيد أكبر فائدة مما سبقه من تجارب ، فيوفق إلى الأدب المبتغى ، هذا هو الكاتب المنتظر .

الأدب اليونانى(١)

كان هذا منذ ثلاثين عاما ! فقد وقع لى كتيب صغير بالانجليزية كتبه مؤلفه الأستاذ ت ـ كارتريت للصغار ، وجعل موضوعه عن الأساطير اليونانية .. وقد كنت شابا فى ذلك الوقت . وكنت مشغوفا بقرض ألوان جديدة من الشعر العربى أردد فيها صدى ما كان يملك لبى من أشعار أساتذتى ، وأصدقاء روحى ، الشعراء الانجليز . . . ولا سيما بيرون وشلى وكيتس ووردذورث . . ولونجفلو الأمريكى .. وكان هؤلاء الأصدقاء الروحيون لايفتأون يرددون من الأساطير اليونانية ما يثير إعجابى : تعبيرا ووصفا وتصويرا لأدق اللوحات الطبيعية ، ونوازع النفوس الشابة الطموح ،. المستسلمة للحب الشاب الطموح .. والجمال الشاب الطموح . وكانت أعظم أشعارهم وقعا فى نفسى منظومة أنديميون للشاعر الشاب كيتس .. وهى تلك المنظومة الفريدة التى نقدها النقاد الانجليز ذلك النقد الظالم ، فقتلوا صاحبها الشاعر الشاب . ولما يكد يزيد عمره على ربع قرن ... وكنت لشدة إعجابى بها لا أنفك أقرؤها ، وأدمن قراءتها ،. بل أقرأ كل ما كتبه الناس عنها وعن صاحبها . ومن هنا إعجابى الذى لاحد له بشيلى .. ولاسيما فى منظومته أدونيس التى رثى بها كيتس . ثم اشتد شغفى بالأساطير اليونانية ، فلم أدع كتابا عنها بالانجليزية إلا اقتنيته ، وقتلته قراءة .. إن لم أقل أفنيته حِفظا .

ثم فاجأنى أستاذى الزيات ـ صاحب مجلة الرسالة ـ فأهدى إلى مجلته ـ فشكرته . ورددت على الهدية باهداء أساطيرى وبكل مارويته بالعربية عن الأدب اليونانى من الالياذة والأوديسة ، وتلك الروائع المسرحية الخالدة التى لاتزال تشغلنى ، وتملك على زمام تفكيرى .. فالى الزيات يرجع الفضل فى كل ما كتبت من عيون

---

(١) بقلم : درينى خشبة .

هذا الأدب ونشر مانشرته منه .. ولا تزال أكبر أمنياتى أن أقدم لبنى قومى ، ومواطنى العرب الأعزاء ، مافرغت منه ، من هذه الروائع المسرحية منذ أكثر من من خمس عشرة سنة .

ويخطىء الذين يظنون أن الأدب اليونانى أدب جاهلى لم تعد للناس به حاجة . . فقد كان هذا الأدب ، ولايزال ، أدب الجمال والإلهام والأحلام .. أدب المشاعر الإنسانية السامية ... الأدب الذى يوحى دائما ، ولا ينضب معين وحيه أبدا ، فهو غذاء الأرواح وخمرتها المقدسة الإلهية .. سواء أكان المرتوى رساما أو مثالا أو شاعرا أو كاتبا ، بل الموسيقى نفسه لا غنى له عن إدمان النظر فى الأدب اليونانى ، والاستمتاع بلوحاته ... لطالما كنت أجد أصل الأسطورة قصيرا مقتضبا . ولكن حينما كنت أمعن النظر فى الطرق المختلفة التى صورها بها عباقرة المصورين ، كان خيالى ينساح هو الآخر ، فأجعل من أسطر الأصل القلائل صفحات طوالا طالما زادت على الخمسين ، ليس فيها شىء مطلقا خارجا عن الأسطورة .. وهكذا كان يصنع المصورون ... وعندى أن الأدب اليونانى كله ، يكاد يكون صورا مكتوبة ، سواء أكان ذلك بالشعر أو بالنثر ، وإن قل فيه النثر قلة عجيبة ، بعكس أدبنا الحديث الذى أخذ النثر فيه يطغى على الشعر حتى كاد ينسخه .

شباب وشيوخ[١]

ليس من طبعي أن أدخل في جدل ولا أن أشارك في مراء ، فان الجدل ـ وا أسفاه ـ لايزال في أدبنا نوعا من المصارعة الحرة ، وسيلة المصارع فيها أن يصرع ولو بالكيد وغايته منها أن يغلب ولو بالباطل . . وأنا أوثر أن تجرى حياتي جريان الجدول الهادىء المنساب ، لا يعترضه شلال فيهدر ولا يصده صخر فيلتوى . لذلك كانت الخصومات الأدبية تشب الحين بعد الحين ، في مجلة الرسالة وفي غير الرسالة ، بين الكتاب . . فلا أشترك فيها بلسان ولا قلم .

ولكن من الخصومات ما يكون فيها معنى الشيوع ، إذا تعلقت بقدس من الأقداس المشتركة ، كالوطن أو الدين أو اللغة ، فتشعر أنك مدفوع اليها وإن لم ترد .

ولقد شاء بعض الأدباء الشباب أن يجعلوا بينهم وبين الأدباء الشيوخ خصومة فكانوا يثيرونها في الصحف كلما حلى في صدورهم ذلك . وكان موضوع الخصومة في كل مرة يقاسي الوهن من ضعف السبب وانقطاع الحجة ، فان الخصومة بين الأبناء والآباء ، أو بين التلاميذ والأساتذة ، لا تسوغ في الطبع ولا تجوز في العرف . . إلا إذا دعت اليها دواع قوية من خيانة الوطن أو معصية الله أو مجافاة الحق . والأدباء الشيوخ كانوا وما زالوا المنارة للأمة في طريق الحياة : ترسل النور إلى الضال فيهتدى، وتبعث الأمل في اليائس فينشط ، وتنفخ الروح في الواني فينهض . وهم الذين أيقظوا الوعى والحس خامد ، وجاهدوا الاستعمار والشعب مستكين ، وأعلنوا الاصلاح والفساد مستحكم .

والأدباء الشيوخ كانوا ـ وما زالوا ـ معقل الدين وموئل كتابه ، يجددون الدارس منه ويدفعون الشبهات عنه ، ويظهرون الإعجاز فيه . وهم الذين تسلموا شعلة الفكر العربي في أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا

(١) بقلم : أحمد حسن الزيات .

حضارتهم أن يمدوها بوقود من عصارة الذهن ، ولا بقبس من نور الوحى ، فأتاح الله لهم من مواتاة الملكات ومعاونة الظروف واكتمال الأداة ما مكنهم من إذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها ، بالزيت والكهرباء ، وجعلوا نورها السماوى فى مصابيح شتى من فنون البلاغة والحكمة .

والشباب لا يستطيعون أن يقولوا صادقين ، أو جادين ، إن الشيوخ تخلفوا عن ركب الحياة،فانهم لا يزالون يعايشون الناس ويسايرون العلم ويتابعون القراءة ويوالون الانتاج . وهم بحكم التجارب المثمرة المحيطة والمران الطويل يشعرون أشد الشعور ويفهمون أعمق الفهم ويعبرون أصدق التعبير . وشيوخ الأدب فى أوروبا وأمريكا هم قادة الفكر وأقطاب البيان ومجازو (نوبل) وأعضاء المجامع وأساتذة الجامعات . ولا يجد الشباب فى هذه الصدارة الطبيعية مسقطة لهم ولا غضاضة عليهم، لأنهم سيخلفونهم على كل أولئك متى بذلوا الجهد الذى بذلوه ، وصعدوا الدرج الذى صعدوه . . فليس هناك إذن من الأسباب القوية أو الضعيفة ما ينشىء خصومة بين شيوخ كانوا شبابا ، وشباب سيكونون شيوخا .

والحق الصريح أن الخصومة ليست بين الشباب والشيوخ ، وإنما هى بين العامية والفصحى ، فالعامية تتخذ لسانها المدافع من هؤلاء لأنهم حماتها . وكراهة الشباب للفصحى لا ترجع إلى نقص فيها أو قصور منها ،وإنما ترجع إلى قلة العلم بها وسوء الفهم لها . وقلة العلم بها لا تعود إلى مطلبها الصعب أو أمرها المعضل ، وإنما تعود إلى سوء الطريقة فى تعليمها وضعف الرغبة فى تعلمها . فلا المعلم صادق الجهاد فيما يعطى ولا المتعلم حسن الاستعداد لما يأخذ .

والنتيجة المحتومة لهذه الحال أن يصبح الغرض من دراسة اللغة هو اجتياز الامتحان بأية وسيلة ، فالكتب المطولة تختصر ، والمختصرة تختزل ، والباقى بعد ذلك فى ذاكرة الطالب يكون رموزا لمعان قائمة عائمة لا هى واضحة ولا هى مستقرة . فاذا تخرج الناشىء بهذا الحظ المنكود من اللغة ، وكان فى نفسه ميل إلى الأدب وفى طبعه استعداد للكتابة ، انصرف عن كنوز الأدب العربى

لأن مفاتيحها ليست عنـــده ، وأقبل على روائع الأدب الغربى يحاكيها ويستوحيها . . حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئا يفيد الناس وجد فى نفسه الملكة التى تخلق ، وفى حسه الصورة التى ترسم ، ولكنه لا يجد فى لسانه اللغة التى تعبر ، ولا فى قلمه الأسلوب الذى يؤثر . فيضيق ويسخط ويثور ، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل . . ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء ، لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا بقياس من صرف ، ولا بنظام من بلاغة .

ومعنى ذلك تغلب العامية لا لأنها أفضل ، ولكن لأنها أسهل ، فان تحصيلها لا يحتاج إلى كتاب ومعلم ومدرسة ، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع ! ومعنى تغلب العامية فصل الأدب عن الدين ، وقطع الحاضر عن الماضى ، وعزل مصر عن العرب .

فلو أن أدباءنا الشباب فعلوا ما فعل أدباؤنا الشيوخ ، فاستبطنوا لغتهم ، وتعمقوا أدبهم ، لما كانت هذه الخصومة التى تتجدد كلما آلمهم النقد أو أغضبتهم المقارنة . وما أظن دراسة العربية تكلفهم من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الانجليزية ، ولكنهم فى عصر السرعة يطلبون القريب ، ويتوخون السهل ، ويتخطون العلم ويتعجلون الانتاج ، ثم يحقدون على الشيوخ لأنهم يلزمونهم التأنى ويجشمونهم الدرس ، ويقولون لهم إننا لا نعرف فى تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد فى لغته كاتبا أو شاعرا وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه .

لماذا لا يشتكى نوابغ الشيوخ من صعوبة الإعراب وبلية اللحن ؟ لو كانوا كلهم من خريجى الدراسة الأزهرية ، كالمنفلوطى وطه حسين وأحمد أمين وعزام والجارم ، لقلنا طبيعة منهاج وطريقة معهد . ولكن أكثرهم من خريجى الدراسة العامة كشوقى وحافظ ومطران والعقاد والمازنى وشكرى والرافعى والسباعى وأحمد زكى وفريد أبو حديد ومحمد عوض ، ولا يختلف هؤلاء عن أولئك فى فقه

اللغة وصحة العبارة وقوة الأسلوب .

أنا من أنصار التوفيق بين الفصحى والعامية , ومذهبي في المجمع اللغوى إمداد الفصحى بما تزخر به العامية من مصطلحات الحضارة ومستحدثات الحياة ومختارات التعبير ، حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهى بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة إلى لغة واحدة عامة ، فيها من الفصحى السلامة والجزالة والبلاغة والسمو ، وفيها من العامية الدقة والطبيعية والحيوية والوضوح .

أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لا تقوم على قواعد ، ولا تجرى على أنظمة ، ولا تشعرنا بجمال ولا تحفزنا لكمال ، ولا تربطنا بماض ولا تصلنا بمستقبل ، ولا تجمعنا في وحدة . فذلك مذهب لا يقول به رجل وهو جاد ، ودعوة لا يستجيب لها إنسان وهو عاقل !

إن الخلاف بين شباب الأدب وشيوخه لا يحسمه إلا أحد أمرين : أن يصعد الشباب إلى الفصحى ، أو يهبط الشيوخ إلى العامية . . وتغليب الصعود على الهبوط أمر توجبه الفطرة ويقتضيه الطموح ويستدعيه الكمال .

... بل هناك مدرسة :

هى مدرسة القيم الانسانية (١)

ماتت مدرسة البرج العاجى منذ انتهت الحرب العالمية الثانية . التى كان يتزعمها طه حسين و توفيق الحكيم والزيات وهيكل، واضطر أصحاب هذه المدرسة أنفسهم إلى اتخاذ طريق جديدة كان للصحافة أثر كبير فى تجديدها وفى إفسادها فى نفس الوقت .

وبدأ الأدب عام ١٩٤٦ يتكشف عن مدرستين كبيرتين جديدتين . لم تكن معالمهما واضحة فى الفترة الماضية وإن كانت خطوطهما كانت قد بدأت فعلا بصورة غير دقيقة فى المرحلة الماضية التى استمرت أكثر من ثلاثين عاما ١٩١٢ - ١٩٤٥ .

أقول إن هناك مدرستين جديدتين ظهرتا باعتبار أن نهر الأدب نفسه كان ماضيا فى طريقه قويا وأن المدرستين ما هما إلا ظاهرتان جديدتان يمكن لهما مع الزمن أن يستمرا أو يتوقفا عن الظهور نتيجة لما يحملان فى أعناقهما من أصالة أو ضعف .

هذان التياران هما : الأدب الجنسى والأدب الأسود . ولقد استطاع هذان التياران فى خلال هذه الفترة التى تبلغ العشر سنوات أن يتألقا فى قوة فيبهرا الأنظار ويخطفا الأبصار حتى لقد خيل لبعض النقاد الذين لا يتعمقون الأمور أن الأدب العربى المصرى المعاصر فى حقيقته لم يعد إلا صدى هذين اللونين من الأدب .

وقد كان العذر الذى جعل بعض قصيرى النظر يقدرون هذين اللونين أن الصحف

---

(١) بقلم : أنور الجندى

حملت لواء الدعوتين وبرزت فى خلال صفحاتها جميعا ـ بلا استثناء ـ مظاهر هذين اللونين بوضوح .

وقد اضطر بعض الكتاب القدامى أن يتحولوا إلى إرضاء هذا الفريق أو ذاك كما ظهر عدد كبير من الكتاب الشباب الذين لمعت أسماؤهم بسرعة تحت كل اسم من هذين الاسمين .

ولعل مصدر استشراء هذين اللونين دون غيرهما من ألوان الأدب فى الفترة الأخيرة هو أن الصحافة نفسها هى التى أرادت ذلك وقضت به ودفعت إليه بحكم أنها عمل تجارى لحسب قائم على العرض والطلب ، ومتجه دائما إلى كسب القارىء بارضاء رغباته ونزواته وتقديم الألوان التى يريدها وأن الدوافع الحقيقية وراء انتشار هذين اللونين هو إرضاء مشاعر الجماهير والحرص على الاستجابة لها باعتبار ذلك وسيلة من وسائل التوزيع .

فالواقع أن أصحاب بعض الصحف هم الذين دفعوا إلى هذا الإنتاج وحرضوا عليه وخلقوا كتابا لم يمض على ظهورهم سنوات ودفعوهم إلى الامام بقوة وأبرزوا أسماءهم حتى عدوا من اللامعين ، مع أن غالبية كتاب الجنس والادب الاسود لم يظهروا إلا بعد عام ١٩٥٠ .

وفى نفس الوقت الذى حرصت فيه الصحافة على دفع هذين اللونين بقوة ، حاولت أن تتجاهل مدرسة ثالثة موجودة فعــــلا وأصيلة وقوية وعميقة . ولها إنتاج ضخم مجود ، وإن كان فى كمية التوزيع أقل من اللونين الصارخين الذاهب كل منهما إلى طرف الحبل . .

ولعل فى الإمكان أن يطلق على هذه المدرسة : المدرسة الوسطى ، أو مدرسة القيم الإنسانية ، فهى تنظر إلى الامور فى عمق وتعرضها فى غير ابتذال وتحاول أن تجمع فيها بين جمال الشرق وعمقه وأمجاده وبين روعة الغرب وعلومه وتقدمه .

وهى أقرب إلى الجد والسمو والتعالى عن التفاهات ، وأحرص من أن

تجرفها الصحافة بحيث تقضى على قوائم كيانها وقواعد رسالتها الهادئة المجددة المعتدلة التى لاتحب التطرف ولا تحطم ولا تحقد ولاتسخر .

ولعل هذه المدرسة الأصيلة التى قد تنكرت لها الصحافة فى هذه الفترة ، وتحاول أن تتجاهلها رغبة أن تضعف من شأنها ؛ لعل هذه المدرسة هى أثبت قدما من المدرستين . ولعل الغد يجعل لها مزيدا من القوة والسلطان ..

والزبد دائما يذهب ويبقى ماينفع الناس . وتلك سنة الكائنات وناموس الفكر والثقافة ، فان هذه المذاهب التى تظهر اليوم فى مصر أصيلة فى طابعها . وليست منبثقة من مجتمعنا وأفكارنا ، وإنما هى فى الأصل منقولة نقلا ، دون تقدير لفوارق الزمن أو البيئة أو غيرهما .. وهى قد نقلت إلى الشرق وإلى مصر بعد أن ماتت فعلا فى الغرب وقضى عليها وتحول الناس عنها .

وغاية رأيي فيهما ـ مذهب الجنس ومذهب الأدب الأسود ـ أنهما موجة على ساحل الأدب العربى المصرى المعاصر ، الذى يندفع بقوة ليفتح آفاقا جديدة تتمشى مع روح الشرق والعرب فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق والغرب .

ولعل الصراع القائم الآن بين المدرستين هو فى حقيقته مظهر من مظاهر التحلل والانهيار لمذهبين لم يقوما فى حقيقتهما على أسس عميقة من الذاتية الادبية ولا من الدعائم المركوزة فى صميم بيئتنا المصرية .

ولعل الصراع القائم بين أنصار مذهب الأدب الأسود أنفسهم ، وانقسامهم وخلافهم العجيب لهو الدليل الأكيد على عدم التوحد لمذهب واضح مدروس ، أو هدف متفق عليه ، وإنما هى محاولات فردية مقضى عليها بالفشل واحدة بعد أخرى .

* * *

أما « مدرسة الجنس » فقد كان يمكن أن تكون امتدادا لكتابات الدكتور طه حسين التى كتبها عام ١٩٢٣ وما بعدها حين عرض للحياة الاجتماعية فى أواخر العصر الاموى وأوائل العصر العباسى وفى مختلف الصور التى عرضها عن أبى نواس وبشار وغيرهما .

وقد ظهر فى خلال هذه الفترة الطويلة بعض القصص كان أهمها قصة « الرباط المقدس » لتوفيق الحكيم التى رسمت الوجهة التى اختطها فيما بعد كتاب الجنس الذين لمعت أسمائهم بقوة ، ونشرت لهم الصحف عديدا من القصص ، وطبعت لهم كتبا أنيقة وزعت بكميات ضخمة وعدت فى نظر كتابها أنها أجود ما طبع من كتب على الأساس الذى يقول إن التوزيع هو مقياس نجاح الكتاب .

وقد اتسع نطاق هذه المدرسة فى السنوات الأخيرة وتعدد كتابها . واستطاعت قصصها أن تنفذ إلى المحيط السينمائى حيث حصل كتابها على أجور ضخمة .

وهدف مدرسة الجنس هى الكشف عن ماوراء غرف النوم وتعرية المشاعر النفسية والانسياق وراء النظرية التى أقام عليها فرويد مذهبه وهى أن اندفاعات الانسان فى الحياة وتعلقه بالمال والمجد وغيرهما إنما هى دفعات جنسية مصدرها هذه الرغبات .

وقد جرى وراء هذه المدرسة عدد من الكتاب الغربيين أمثال « لورنس » واندريه جيد والبيرت مورافيا . وقد كان للوجودية تأثير كبير فى هذا الإنتاج . وفى ظل هذه الأجواء نشأت هذه المدرسة فى الأدب العربى الحديث لاتعترف باللغة ولا بجمال الأسلوب وإنما تقصد إلى تصوير الغرائز والاهواء فى صورة بعيدة عن الطبيعة الحقة ، التى تجمع فى خطها الطويل بين الجد واللهو وبين اللذة والكفاح وبين الهوى والضلال . . أما فى أدب هؤلاء الكتاب فهى صورة من الهوى اللافح المحروم المضطرب القلق ، هذه الصورة تنطبع فى نماذج من الشباب والفتيات المنحرفين .

ولست أعتقد أن القصص الجنسى الذى تنشره الصحف هو مذهب هادف إيجابى محدد وإنما هو فى صميمه اتجاه صحفى دعت اليه الرغبة التجارية فى الحصول على أكبر عدد من القراء . .

* * *

وفى نفس الوقت الذى ظهرت فيه هذه المدرسة ، ظهرت مدرسة « الأدب الأسود » التى ترسم صوراً من الشعر والقصة مظلمة ، محرومة ، جائعة ، كلها تدور حول الرغيف والجوع والحرمان والظلام . . . وحول الفقر والقيود والأصفاد . فبينا مدرسة الجنس تذهب إلى آخر الشوط فى الانطلاق والمتاع واللذة والهوى تذهب هذه إلى آخر الشوط من الناحية الأخرى فى الانطواء والحقد ووضع النظارات السود على العيون . .

فى خلال هذه الفترة أصبحت القصة هى الشىء الوحيد الذى يستطيع كاتبه أن يجد رزقا وناشراً وصحافه تفتح له الأبواب . أما مختلف الألوان الأدبية من النثر إلى الدراسة الأدبية إلى الفكر إلى النقد فهى فنون لا سبيل إلى حياتها إلا إذا ضحى أصحابها بكل مايملكون فى سبيل إبرازها إلى الوجود والتضحية فى سبيل إذاعتها بكل شىء .

* * *

وبين نهاية الخطين . . من الأدب الجنسى فى ناحية ؛ إلى الأدب الأسود فى الناحية الأخرى ؛ تقوم المدرسة الجادة الصادقة التى لا تعتمد على تهريج الصحافة ولا زخرف الصورة العارية ، ولا دعوة الجوع والرغيف ولا تصوير الفراش وما فى أعماق غرف النوم . المدرسة التى لا تشغل القارىء ولا تخدعه ، ولا تنافق رغباته وداخل أعماقه من هوى وجنس ، المدرسة التى لا تعطى الصحافة هذا الشرف الذى يرضى القارىء المراهق ، ولا تعطيها الصحافة الأسلوب النازل ولا العبارة الرخيصة ولا المعنى الاهوج .

هى مدرسة القيم الانسانية الجادة ، المدرسة التى تأخذ من الشرق والغرب ، ومن التراث القديم ومن روائع الأدب العالمى . المدرسة التى تمزج وتهضم وتتمثل ، ولا تتعصب للقديم أو للجديد ، ولا للشرق أو الغرب ، وإنما تؤمن بشخصيتنا أولا إيمانا صادقا، هذه الشخصية التى كونتها أحداث وتراث وماض ضخم وحضارات عظيمة متعددة ، حضارة مصر القديمة ، وحضارة العرب ، وحضارة الإسلام . . . فنحن نؤمن أن الحضارة تراث مشترك كان لنا دور فى قيادتها والمحافظة عليها والإضافة لها . . ونحن الآن نتلقاها ونستعد لنقوم بدورنا مرة أخرى . . فالحضارة الغربية التى غلب عليها تيار المادة أصبحت فى حاجة إلى سناد روحى قوى . . لايعطيها اياه الا الشرق ، إلا نحن، وهى إن لم تطعم به فانها صائرة إلى الانهيار والفناء .

نحن نقدم مدرسة القيم الإنسانية ، التى تتأهب لتحمل الرسالة فى سبيل غد جديد مشرق . ويعمل لها الآن طائفة من الشباب الصادق الذى لايؤمن بالبريق ولابالشهرة الزائفة ، وفى مقدمة العاملين : طه عبد الباقى سرور ، ومحمد وعبدالمنعم خفاجى وكاتب هذه السطور .

وبعد فان الزمن وحده هو الحكم وهو الذى يكتب الكلمة الأخيرة فى بقاء هذه المدارس أو فنائها .

الفكر الحر أساس الابتكار[1]

فى مصر اليوم نهضة عامة تشمل جميع نواحى الحياة فيها ليست وليدة الثورة والسياسة فحسب ولكنها يرجع تاريخها إلى عهد محمد على ، بل يرى البعض أن يرجع بها إلى الحملة الفرنسية . ومهما يكن من مبدئها فما لا شك فيه أنها اليوم طابع الحياة المصرية تسرى فى شرايينها جميعا ، وتكييف التطورات الاجتماعية ، وتصل بين مناحى الثقافة العامة . وآيتها ذلك التحول الواسع المدى الذى طرأ على الفنون والآداب والمجتمع ، ورفع عنها بعض ما كانت ترزح تحته من التقاليد والمذاهب العتيقة . غير أن هذه النهضة وما صحبها من تطور امتازت بأنها « نهضة نقل وتقليد » وجعل رجالها نصب أعينهم حضارة أوربا يمجدونها ويتخذونها مثلا أعلى . كان هذا طابعها حين بدأ محمد على يستعين بالعلماء والمهندسين الأجانب يبثهم فى المصالح والدواوين والجيش والقصر ، يقربهم ويعلى كلمتهم ، حتى اتسع النفوذ الفرنسى لكثرة من استعان بهم من الفرنسيين ولم ير هو فى هذا غضاضة أو ضيرا ، ولم يفكر لحظة أن يقف فى وجه هذا النفوذ، يصده أو يحصره ، وكان كل همه أن يرى بلاده قوية مجيدة الحاضر والمستقبل كما يرى أوروبا . وكان من أثر هذه الروح أن زاد عدد الأجانب فى مصر ليس فى دوائر الحكومة فحسب ولكن فى ميادين الصناعة والتجارة ، وبالغ الحكام المصريون فى ارضائهم وتشجيعهم فأغدقوا عليهم المنح والمزايا التى أخذت بتقادم الزمن وبحكم العادة تنقلب «التزامات» أصبحت فيما بعد نواة « نظام الامتيازات » .

وقد دأب إسماعيل على نفس الخطة التى سار عليها جده محمد على ، وكان يفخر بان بلاده تنقلب من إقليم افريقى إلى قطعة من أوربا ، وانصرفت همته إلى تجميل العاصمة ومد الخطوط الحديدية وشق الترع وحفر قناة

---

[1] بقلم : محمد زكى عبد القادر

السويس ، وأثقلت هذه المصاريف ميزانية البلاد ، فلجأ إلى الإستدانة ، وتضخمت ديونه فيما بعد ، فأنشىء صندوق الدين وأدخل نظام الرقابة الثنائية ، وأضحى في مجلس الوزراء المصرى مستشاران أجنبيان ، واتخذ « النفوذ الأجنبى » بذلك صبغة رسمية كانت فيما بعد ، وإلى حدما ، حجة الاحتلال الانجليزى . على أن تطور الحوادث على هذا الشكل كان ابعدا أثرا مما قد يبدو ذلك أنه مكن للاجانب فى مرافق البلاد وثروتها ، وجعلهم أصحاب الكلمة النافذة فى دوائر الصناعة والتجارة ، وأضحت البلاد تحت نوع من « الوصاية الاقتصادية » أشد على حياتها ومستقبلها خطرا من « الوصاية السياسية » التى ضربت عليها فيما بعد .

وكان اثر هذا التطور فى الحياة الفكرية العامة لايقل عن أثره فى ناحيتى الاقتصاد والسياسة ، فالضعيف دائما مغرم أن يقلد القوى ، وكان هذا شأن مصر . ضربت عليها أوربا « وصاية فكرية » ، جعلت الحياة المصرية كلها مشربة بالروح الأوربى والتقاليد الأوربية . واستمر مفكرونا وقادة الرأى عندنا لايفعلون أكثر من أن ينقلوا إلينا آثار الغرب فى الصناعة والعلم والأدب والفنون ، وجعلنا نحن ، كالاطفال ، ننظر معجبين مبهورين إلى هـــذا العملاق العجيب نكتفى بالفتات ، ونرضى أن نكون فى آخر الصفوف .

لقد قامت نهضة « الحياة » فى أوربا أول أمرها على بعث العلوم والآداب الرومانية القديمة ، ولكنها ما كادت تخطو خطواتها الأولى حتى أخذ رجالها يقفون على أقدامهم وحدهم ويطلقون العنان لأفكارهم ، يضيفون إلى تراث أجدادهم القديم صحائف مجد جديد ، حتى أضحت أوربا بفضل هذه الرؤوس الكبيرة تقود العالم وتحرك مصاير .

كذلك يجب أن نضع نحن أيضا حدا لهذا التقليد ، ولن نستطيع ذلك إلا إذا شجعنا الفكر الحر وخلقنا فى صدورنا فضيلة الاعتماد على الذات والثقة بالنفس ،

إن وقوفنا وراء العالم على حين يسير العالم كله لن يجعلنا دائما إلا عالة قليلى الخطر ضعيفى القدر . إلى هذه الحقيقة يجب أن تنفتح عيوننا ، وعيون قادة الفكر والرأى فى مصر . فمتى هدأت العاصفة السياسية التى تشغل أذهان الناس فسيرجع الجميع إلى حياة العلم والفكر والفن . وهذه جميعا ما أضأل حظ مصر منها ، وسيدرك الكل حينئذ أن نهضة هذه البلاد مموهة تبهر البصر ببريق خادع فى حين هى فى اللباب والجوهر نخرة خواء ،

إن التفكير الحر أول مراتب الابتكار ، فلنشجعه ولنذلل كل عقبة فى سبيله ، لنشجعه دائما ولو كان خطأ ، فلن نصل إلى الصواب إلا اذا عرفنا الخطأ ، على ان يشمل هذا التفكير كل نواحى الحياة ، يجب أن يشمل الزراعة والصناعة والعلم والأدب والفن والاجتماع ، فهذه جميعا سلسلة متصلة لن تستطيع أن تفصل حلقة واحدة منها عن الأخرى . ويجب أن نرحب بالنقد كلما كان نزيها خالصا ، لأنك حين تعرف عيوبك تخطو خطوة فى سبيل الكمال . لنعرف عيوبنا إذاً ، ولننقدها فى حرية ونزاهة وإخلاص ، ولنعالجها فى صراحة ووثوق حتى نصل إلى ما ننشده من سمو ومجد .

إن الحرية الفكرية فى مصر راكدة ، ونوادى العلم والاجتماع لا أثر لها فى هذه البلاد ، وهى هى علامة الحياة والنشاط والإيذان بالقوة والمجد . فالعظمة اليوم للعلم والفكر والعصر ليس عصر الحديد والنار ، وإن كان البعض يراه اليوم كذلك ، فان المستقبل والمجد للعلم وحده .

إن تشجيع الفكر الحر من واجب كل مرب ، من واجب الأب نحو أبنائه ، والمعلم نحو تلاميذه ، ومن واجب وزارة المعارف نحو هذه الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة الذين تنشئهم . عليها أن تهذب برامجها بحيث تجعل أفق التفكير امام التلاميذ واسعا ، تنشئهم على الاستقلال فى الرأى والاعتماد على النفس كيما ننشىء لهذه البلاد جيلا قوى الفكر ، موحد الغاية ، حصيف النظر ، لا يرضى بما نرضى به نحن اليوم من تلق

الفتات والعيش عليها . إننا فى أشد الحاجة إلى عقول تفكر وحدها ولا تقلد . تفكر وحدها أيا كان هذا التفكير خطأ أو صوابا ، فالفكر الحر أول مراتب النجاح والتقدم فى الحياة .

إن مستقبل مصر رهين بالأجيال قادمة ، وكم نرجو ألا تكون أجيالا متواكلة ضعيفة عاجزة حتى تخطو مصر فى سبيل الرقى والمجد خطوات جديدة وحتى لا نقف على حين العالم كله يسير . إن ماضى هذه البلاد المجيد لا يناسبه إلا مستقبل أمجد وأروع . وكى نخلق الجيل الذى يحمل على عاتقه عبء العمل لهـــذا المجد المأمول ؛ يجب أن نعد له منذ الآن وننشر أمامه النور والحرية لينشأ جيلا قويا خالصا من الأغلال والقيود .

المقالة والقصة (١)

يعرف الدكتور هيكل الادب بأنه فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة مافى الحياة والوجود من حق وجمال بواسطة الكلام . . .وهذا التعريف ينتظم النثر والنظم والقصة والمسرحية . وقد قسم الدكتور طه حسين الأدب إلى انشائى ، هو مختلف فنون القول المجردة التى تصف منظرا أو حادثا أو تجربة شعورية . . . والوصفى وهو كل ما يتعلق بالنقد أو تاريخ الادب أو الدراسات الموضوعية .

وقد تطور النثر فى العصر الأخير حتى قارب أن يكون صالحا لأداء حاجات النفس وبذلك سبق الشعر فى ميدان الأداء النفسى . . وقد دارت بحوث طويلة حول الشعر والقصور عن أداء رسالته إذ كان فيما مضى أكثر استعمالا وذيوعا . . ثم تراجع وغلب عليه النثر واحتل مكانه .

وجرت بحوث كثيرة حول أفضلية الترجمة أو التأليف : وكان لكل رأى مؤيدوه الذين يرون وجاهة ما يذهبون إليه من ضرورة الترجمة قبل التأليف أو العكس .

وأثيرت مناقشات طويلة حول الأدب المهموس والنماذج البارزة منه فى أدب المهجر ، والأدب الجهير الذى يتمثل فى الشخصيات الشاعرة الضخمة الطاغية .

وأثيرت بحوث مطولة حول أدب القوة ، الذى يتمثل فى الألوان الجريئة القوية التى تدعو إلى الوطنية وقوة الشخصية ومتانة الخلق، وأدب الضعف الذى يتمثل فى الصور الرخوة والقصص المكشوفة والشعر الذى تتبدى فيه مظاهر الضعف والميوعة .

---

(١) بقلم: أنور الجندى .

وتناول الأدباء بالبحث ما أطلق عليه أدب المعدة وأدب الروح . وقال جماعة إن الفصل بين المعدة والروح عقيدة هندية . وقال الآخرون إن أدب المعدة هو كل ما يتعلق بشئون المعاش ونظم المجتمع والجوانب الأقتصادية والعمرانية ، وإن أدب الروح هو ما يتصل بالفكر والنفس والمعانى الروحية العليا وحدها ، وقد عرضنا فى هذه المادة كل ما أثير من قضايا ودراسات عرضا موجزا لنبين تطورات الأدب فى الفترة الأخيرة . . . وليس هذا العرض التفصيلى الاجزءا من نظام دوائر المعارف التى يغلب فيها « التسجيل » على عرض الرأى الشخصى للكاتب . . .

والواقع أن الأدب تطور منذ مستهل القرن العشرين تطورا نقله من قيود التقليد وبقايا العصر العثمانى ، وأمكن فى خلال الخمسين عاما الأخيرة أن ينتقل عدة مراحل ، وأن يخطو خطوات واسعة فى سبيل الكمال فيؤدى رسالة الفكر ، ويعبر عن نوازع النفس فى صورة قوية واضحة بعد أن زادت الثروة البيانية ، وأتيح للأسلوب أن ينصقل ، فيؤدى المعانى على نحو من الوضوح والنصاعة ، على صورة لم تكن معروفة من قبل . . .

وكان من حسنات هذا التطور أن انتهى عهد المقدمات الطويلة والإسهاب والعناية باللفظ وحده ، وحل محل هذا اتجاه جديد نحو العناية بالمعنى والإيجاز والوضوح والسرعة . . .

وكان ولاشك لدور « الترجمة » من الأدب الأوربى أبعد الأثر فى هذا التحول ، وفى الانتقال إلى الناحية الموضوعية ، فقد حفل الأدب العربى الحديث بفنون جديدة من المقالة الموضوعية التى تتصل بالنقد والسياسة والاجتماع والفن والتراجم ، كما استفاد من الطريقة العلمية الحديثة فى البحث ، وسرعان ما ظهر الأدب القومى والوطنى الذى يمثل البيئة المصرية والعربية والشرقية ، والذى يتصل بأدق المشكلات والمسائل التى تثار حول الوطنية والمجتمع والسياسة وحول الملامح الروحية والنفسية والإنسانية .

وعاونت الصحافة الأدب معاونة فعالة ، فاتاحت له فرصة الظهور على صورة واسعة النطاق ، كما أمدته بالسرعة والبساطة ، وأكسبت الكثير من أسماء العاملين به شهرة ، وعرفت بهم . وان كانت من جانب آخر قد جنت عليه ونقلته من التجرد الخالص للفن ، إلى الإذابة فى محيطها ، وإلى تحقيق رغبات القارىء وهواياته ، لا السمو به ورفع مستواه .

أما هذه القضايا التى أثيرت ، سواء فيما يتعلق بالأدب التركيبي أو التحليلي وهى نظرية أحمد أمين ، أو الأدب الإنشائى والوصفى ، وهى نظرية طه حسين ، أو الأدب المهموس وهى نظرية الدكتور مندور ، أوغيرها من نظريات تتصل بجوهر الأدب نفسه، كنظرية الفن للفن ، أو الترجمة والتأليف فيبدو أن الزمن قد فصل فيها ، وأن الألوان الأدبية قد تبلورت واستقرت فى أوضاعها التى يمكن أن يقال عنها إنها أفادت من الأدب الأوربى واستمدت منه ثم هضمت ذلك كله وصاغته فنا عربيا واضح المعالم . . . وإن شتى التيارات المختلفة لم تتمكن من أن تذيب الأدب العربى فى بوتقتها أو تقضى عليه .

صحيح أن النثر قد رسخت قواعده ، وغلب الشعر فى ميدان الأداء ، ولكن القصة أيضا ، وهى الفن المستحدث الذى ظهر فى مصر عام ١٩٢٤ اصبحت من أبرز ألوان الأدب الآن ، ومن أشدها صلة بالقارىء المتعجل . . . وإن ظلت المقالة الأدبية والسياسية هى دعامة الأدب . . . وجزء من رسالة الصحافة .

أما الشعر فلا يزال يؤدى واجبه ، فى حدود ضيقة ، ويبدو أنه لن يلحق المقالة والقصة ، وسيظل « الفن التقليدى » الذى يعيش على المناسبات والمجاملات .

تراثنا القـــديم (١)

كان تراث العربية حتى أوائل القرن الماضى لا يزال مغموراً محجوباً فى ظلمات المكتبات والمجموعات الخاصة ؛ وكانت المطابع قد ظهرت فى أوربا منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وطبعت فى رومة بعد ذلك بنحو قرن بعض الكتب والوثائق العربية ، منها : مختصر كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الإدريسى (سنة ١٥٩٨) ؛ وفى القرن السابع عشر طبعت فى مدينة ليدن التى مازالت منذ أربعة قرون مركزا هاماً لنشر الآثار العربية ، عدة مراجع عربية تاريخية ، منها : « تاريخ المسلمين » لابن العميد (المكين) (سنة ١٦٢٥) ، وكتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » ، لابن عربشاه (سنة ١٦٣٦) ، وكتاب مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (سنة ١٦٦٣) ، وظهرت هذه الكتب بالعربية لأول مرة مقرونة بتراجم لاتينية كانت منذ ظهورها مستقى خصباً لمؤرخى الغرب .

ولم يظهر فى أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر من الكتب العربية سوى طائفة قليلة من الكتب قد لا تعدو عشرات ، وإلى أواخر القرن الثامن عشر لم تكن مصر قد عرفت المطبعة العربية ، وقد عرفتها لأول مرة فى سنة ١٧٩٨ ، حينما وفد نابليون على رأس حملته الفرنسية ، وحمل معه مطبعة عربية كاملة استعملت فى القاهرة لطبع البيانات والأوامر التى كانت تصدرها القيادة العليا ويصدرها الديوان الفرنسى لأهل مصر ، وكان فى مقدمة الكتب التى أصدرتها هذه المطبعة كتاب عن محاكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر يضم خلاصة التحقيقات والإجراءات بالعربية والتركية والفرنسية ، وذلك سنة ١٨٠٠ .

ولما بدأ محمد على فى تنفيذ برنامجه لم تفته هذه الناحية من تعضيد الحركة

---

(١) الأستاذ : محمد عنان

الفكرية والثقافية ، فأنشأ فى سنة ١٨٢١ مطبعة بولاق الأميرية ، وعنى بإعدادها وتجهيزها ، فكانت أول وأعظم صرح للطباعة العربية فى الشرق ، ولم تقتصر مطبعة بولاق على إخراج الجريدة الرسمية (الوقائع) التى أنشئت بعد ذلك ببضعة أعوام ؛ وإخراج الوثائق والمنشورات الرسمية ، بل أعدت منذ إنشائها لإخراج الكتب العربية ، فطبعت فيها لأول عهدها عدة من الكتب التى ترجمها بعض أعضاء البعثات العلمية فى مختلف العلوم والفنون التى درسوها ، فكانت باكورة أعمالها فى نشر الكتب العربية .

على أن مطبعة بولاق لم تقف عند هذا الحد المتواضع فى إخراج الكتب العربية ، وكانت المطابع العربية الأوربية ، ولا سيما فى لندن وباريس ، قد نشطت منذ أوائل القرن التاسع عشر لإخراج طائفة كبيرة من الآثار النفيسة على يد جماعة من أعلام المستشرقين ، فاتجهت الأنظار فى مصر إلى العناية بهذه المهمة ، ونشطت مطبعة بولاق إلى إحياء التراث الإسلامى بهمة فائقة ، وعكفت طوال القرن التاسع عشر على نشر الموسوعات والآثار العربية الجليلة . وأسدت فى ذلك أعظم الخدمات للآداب العربية والثقافة الإسلامية ، ونظرة واحدة إلى ثبت الآثار الحافلة التى أصدرتها مطبعة بولاق تدل على فداحة المهمة التى اضطلعت بها ، وإلى مدى التوفيق الباهر الذى حققته فى إنجازها .

وإلى جانب مطبعة بولاق ، قامت مطابع أهلية كثيرة ، ونشطت أيضا فى إخراج الكتب العربية ، وقد كان ميداناً جديداً يغرى بالكسب ؛ فأقبل الكثيرون على استثماره ، وأخرجت هذه المطابع الأهلية ، إلى جانب بولاق ، مئات من الكتب والآثار العربية الضخمة فى كل أنواع العلوم والفنون ، وأعادت طبع كثير مما نشرته بولاق فى طبعات رخيصة يسهل اقتناؤها ، وساهمت بذلك مساهمة قيمة فى إحياء الآداب العربية ونشرها .

وهذا ما نريد أن نعرض إليه فى هذا المقال ، فقد انقطعت مطبعة بولاق منذ أوائل هذا القرن عن نشر الآثار العربية القديمة ، وحلت محلها فى ذلك دار الكتب

المصرية ، ولكن دار الكتب تقوم فى هذا السبيل بجهود بطىء جدا ، أما المطابع ودور النشر الأهلية فما زالت على نشاطها القديم فى إخراج الموسوعات والآثار العربية ، ومنها كثير لم ينشر من قبـــل ، ومن المحقق أنها مازالت تؤدى بذلك خدمات قيمة لإحياء الآداب العربية .

ولكن هذا النشاط إذا كان يحمد من بعض الوجوه ، فإنه يثير اليوم كثيرا من وجوه الاعتراض والمؤاخذة ، وإذا كان قد ترك فى الماضى حرا طليقا من كل قيد فان الظروف تقضى اليوم بضبطه وتنظيمه وتوجيهه بطريقة تحقق الغاية منه .

بدأ هذا النشاط فى أواخر القرن الماضى ، والحركة الأدبية والثقافية فى مستهل نهضتها ، فكان هذا النشاط فى بعث الكتب العربية وإحيائها بالنشر والتداول من عوامل تعضيدها وتغذيتها ، ولم يكن من المستحسن يومئذ أن يعرض هذا النشاط لشىء من القيود التى يمكن أن تؤثر فى سيره ونمائه ، وذلك رغم ما كان يعتوره من أوجه النقص سواء فى اختيار الكتب التى يراد نشرها ، أو فى الصور المزرية التى كانت تنشر بها : ورق أصفر ردىء ، وطباعة حقيرة ، وأخطاء علمية ومطبعية لا حصر لها .

أما الآن فقد تغيرت الظروف تغيرا واضحا ، وازدهرت الحركة الفكرية ازدهاراً عظيما ، وظفرت بطائفة كبيرة من خريجى المعاهد والمنشآت العلمية الراقية ، وغصت بالشباب المتعلم ، وأضحى مما لا يلائم ذوق العصر وأحواله ، بل مما يضر بسير الحركة الفكرية ذاتها ، أن يترك أمر نشر تراثنا العربى القديم فوضى دون ضابط ودون إشراف .

فهناك موسوعات وآثار قيمة سبق نشرها فى طبعات جيدة وأضحت نادرة لقدم عهدها ، وهناك بدار الكتب المصرية مئات الآثار المخطوطة التى لم تنشر من قبل ؛ وهذه جميعاً يقوم على نسخها ونشرها جماعة من الناشرين المحترفين العاطلين من كل مؤهلات علمية أو أدبية ، والذين لاهم لهم سوى الكسب الوفير ، فيخرجونها

فى نفس الأثواب والصور المزرية التى ألفناها منذ القرن الماضى ، ويتقاضون فيها أثماناً فاحشة لامبرر لها ، منتهزين فرصة ندرتها إن كانت مما نشر ، أو ظهورها لأول مرة إن كانت مما لم ينشر من قبل .

وقد اتسع نطاق هذه الحركة فى العهد الأخير اتساعا واضحاً ؛ وألفى الناشرون المحترفون فيها سوقا رائجة ؛ فكثر تهجمهم على الآثار النفيسة مخطوطة وغير مخطوطة وأخذوا ينشرونها فى استهتار وجرأة ، ممسوخة مشوهة ، مشحونة بالأخطاء الشائنة ، لا يتكلفون فى إخراجها سوى الطباعة الرديئة ، ثم يبيعونها بأثمان فاحشة ، كأنهم هم الذين ألفوها وأجهدوا أنفسهم فى وضعها وكتابتها .

ولا يخفى مالهذا النشر المشوه لآثارنا القديمة من نتائج سيئة ، فهو خلو من كل ضمانة أو غاية علمية أو أدبية ، ولا تحدوه سوى روح الكسب المجرد ، ومن ثم كانت الصور المثيرة المزرية التى تصدر بها أجل آثارنا الأدبية ، والتى كثيرا ماتصد الشباب المتعلم عن تناولها ، وهذا من جهة أخرى عامل كبير فى إحجام علمائنا وأدبائنا عن المساهمة فى هذا المجهود مع رغبة الكثيرين منهم فى القيام على نشر بعض الآثار القديمة التى توفروا على دراستها وتحقيقها ، ذلك لأن جهودهم العلمية الغالية ، وحرصهم على نشر هذه الآثار فى أثواب مقبولة لائقة ، وما ينفقونه فى هذا السبيل من الجهد والمال ـ كل ذلك يقعد بهم عن مجاراة هذا النشاط التجارى المحض ، العارى عن كل درس وتحقيق .

ونحن نعرف ما يتكبده العلماء المستشرقون من الجهود الفادحة فى إخراج آثارنا القديمة ، والتوفر على دراستها وتحقيقها والتعليق عليها بدقة تثير الإعجاب ، وإخراجها دائما فى أثواب أنيقة محترمة .

ولهذا كله نرى أن الوقت قد حان لتعنى السلطات المختصة بالعمل على مراقبة حركة إحياء الآثار العربية القديمة ، وتوجيهها وتنظيمها تنظيما يتفق مع ما لتراثنا القديم من كرامة علمية ، ويلائم فى نفس الوقت حاجات العصر وذوقه وروحه .

ويلوح لنا أن دار الكتب المصرية ، وهى وريثة بولاق فى الاضطلاع باحياء الآداب العربية ، هى أول سلطة أدبية يمكن أن تضطلع بمثل هذا الإشراف العلمى، ذلك أنها هى مستودع تلك الآثار الجليلة المخطوطة التى ترنو إليها أنظار الناشرين المحترفين من كل صوب ، فيقبلون عليها بالنسخ المحرف ، والنشر المشوه ، لايتكلفون فى ذلك شيئا ، ولايصدهم قيد أو إشراف ، وقد تكون هذه الآثار مما حصلت عليه دار الكتب من الخارج بالتصوير ، وأنفقت فى سبيله كثيرا من الجهد والمال .

ونحن لا نطلب أن تقوم دار الكتب بمنع النسخ والنشر، ولكننا نطلب إليها فقط أن تقوم بالإشراف عليها إشرافا فعلياً ، وأن تضع لذلك نظاماً يكفل تحققها من وجود بعض الضمانات العلمية والمالية فى الناشرين أنفسهم ، فاذا لم تتوفر الضمانات العلمية - وهى غالبا غير متوفرة - اشترط أن يقوم بالإشراف على النشر شخص تتوفر فيه مثل هذه الضمانات . ويجب أن تمتد هذه الرقابة حتى صدور الكتاب ، وأن يراعى صدوره فى ثوب لائق ، وأن يحدد ثمنه بعد صدوره بنسبة معقولة من تكاليفه ، ويصح أن تتولى دار الكتب الإشراف العلمى على الكتاب ذاته لقاء أجر معين ، ويصح لها أن ترفض التصريح بالنسخ والنشر إذا لم تتوفر مثل هذه الضمانات ، ويجب على أى حال أن يشمل هذا الإشراف كل أثر مخطوط ينشر فى مصر ، سواء استنسخ من دار الكتب ذاتها ، أو من أى مكتبة أخرى عامة أو خاصة ، فى الداخل أو الخارج ، لأن الغرض هو الإشراف العلمى على حركة إحياء الآداب العربية فى مصر ، ويجب أن يكون هذا الإشراف كاملا شاملا .

ويمكن من جهة أخرى أن تتعاون المعاهد العلمية مع دار الكتب فى هذه المهمة فتشترك الجامعة المصرية والأزهر فى تنظيم هذا الإشراف .

هذا ولا بأس أن تفرض الحكومة ضريبة معينة على نسخ الكتب المخطوطة التى لم تنشر من قبل ، وعلى نشرها إذا كان النشر لغاية تجارية ، وتقدر هذه الضريبة بحسب

حجم الكتاب أو أهميته ، ويعنى العلماء من أدائها فى جميع الأحوال ، ويرصد دخلها لتوسيع حركة إحياء الآداب العربية التى تقوم بها دار الكتب .

إن الحق فى نشر آثارنا القديمة ملك للدولة ، وهى الأمينة عليها ، وإذا كان مما يرغب فيه دائما أن يشجع الإقدام على نشر هذه الآثار ، فان مما يرغب فيه أيضا ألا يكون هذا النشر بضاعة مبتذلة يستثمرها الجهلاء لغايات تجارية محضة ، وألا يحاط بكل الضمانات المعقولة التى تكفل تحقيقه على الوجه اللائق المرضى .

هذه ملاحظات واعتبارات حان الوقت لبحثها ، وقد أصبح من واجب السلطات المختصة أن تنشط لحماية تراثنا الأدبى من تلك الفوضى المثيرة ، وأن تعمل لصونه من ذلك الابتذال الشائن ، وأن تقوم أخيرا على تنظيم نشره ، وتوجيهه بطرق موقرة مستنيرة .

النكتة المصرية [١]

النكتة مظهر فطنة والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك . ويندر أن يستطيع صاحبها التحليق فوق المظاهر ، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة ، وهى تضحكنا بما فيها من مقابلة بين أمرين أو حالين أو سلوكين ، مستورين ، أو مستور وباد ، أو باديين ، مثال ذلك ما عزى إلى صديقنا الأستاذ محمد خطاب من أنه قال لسيدة زعمت أن زوجها يهدى إليها فى كل عيد ميلاد لها مائة جنيه « اذن أنت مليونيرة ! » وكثيرا ماتدور النكتة على تشابه الألفاظ فى الجرس واختلاف دلالاتها أو معانيها ، ومثل هذا الضرب لاسبيل إلى نقله إلى لغة أخرى ، لأنه يتعلق باللفظ لا بالمعنى أو الصورة . وفى النكتة معنى النقد ، بالسخرية والتهكم وما نسميه «القفش» ، كان للمرحوم إمام العبد الشاعر الزجال صديق يقضى النهار فى النوم والليل فى السهر ، فقال إمام على سبيل « القفش » لصديقه وتصـــوير حاله المقلوب إنه رسم صورته عصر يوم بالقلم الرصاص على « طاولة » فى مقهى ، فلما غابت الشمس نهضت الصورة واقفة !

أما الفكاهة فشىء مختلف جداً ، لأنها تدور على المعانى والحقائق ، وتغوص على الجواهر ولا تتعلق بالصور العارضة . وأنا أخالف من يذهبون إلى أن هناك فكاهة لفظية وأخرى معنوية . وعندى أن مايسمى فكاهة لفظية أولى به أن يدخل فى باب النكتة ، وأخالف أيضا من يظن أن الفكاهة من شأنها أن تغرى بالضحك أو على الأقل بالابتسام ، وعندى أن الفكاهة قد تضحكك أو لا تضحكك. فليس هذا بالذى له قيمة ، وهو راجع إلى الأسلوب الذى يساق فيه المعنى وقد تجىء الفكاهة صارمة الجد ، بل أصرم من الجد نفسه وسواء أحملتك أم لم تحملك على الضحك أو الابتسام وأدخلت أولم تدخل على نفسك السرور ، فانها لابد أن

---

(١) بقلم : ابراهيم عبد القادر المازنى .

نغريك بالتأمل والتفكر، والنظر والتدبر. وسأسوق مثالا واحدا له نظائر كثيرة، قصيدة للشاعر الانجليزى توماس هاردى اسمها على ما أذكر « وفد الأرض » وفيها يتخيل الشاعر أن وفدا من الكرة الأرضية صعد إلى السماء، واستأذن فدخل على « الرب » وشكا إليه سوء حال الجنس الإنسانى، وما يلاقى من الحروب والأوبئة والطواعين والظلم والقسوة إلى آخر ذلك، فأخذ الرب يتفكر ويحاول أن يتذكر، ويقول كمن يحدث نفسه: الأرض؟ الجنس الإنسانى! إنى أتذكر أنى قبل ملايين من السنين خلقت شيئا كهذا فى جملة ما خلقت من ملايين الكواكب والنجوم، فهل هذه الأرض لا تزال موجودة؟

وهنا ينبغى أن أقول: إن الشاعر مسيحى صحيح الإيمان بدينه، وليس بملحد كما قد يسبق إلى وهم القارىء. وقصيدته هذه تنتهى بما يشهد له بصحة العقيدة وعمق الإيمان، وهو لا يريد أن يقول إن الله - سبحانه - نسى الناس وكرتهم الأرضية، وإنما يريد أن يصور ضآلة هذه الكرة، التى يتوهم الأكثرون أنها مركز الدائرة وقطب الرحى فى هذا الكون المهول الذى لا يعرف له أول أو آخر. وهوان شأن الإنسان المغرور المنتفخ الأوداج. وقد تبتسم حين تقرأ قول الشاعر على لسان الرب فيما يتخيل: ألا تزال هذه الأرض موجودة؟ ولكن الابتسام يغيض حين تدرك المعنى المقصود، وتفطن إلى ما بطن به هذا المزاح، فتروح تفكر فى هذا الإنسان الضعيف المغتر، وهوان شأنه وشأن أرضه وطموحه، وتضحك على الرغم من جلاله، وتوهمه أنه شيء له قيمة، وسعيه ودؤوبه وتعثره وتخليطه، وتوفيقه مرة وإخفاقه مرات، وحيرته حيال الأقدار الراصدة له فى حيث سلك، إلى آخر هذا، ودأب توماس هاردى وكده فى شعره ورواياته أن لا يضع من شأن الإنسان، بل يعطف عليه ويرثى له، بغير كلام يعرب به عن العطف والمرثية. لأن قلبه كبير، وأفقه واسع. على خلاف أناتول فرانس معاصره، فانه مر وعر.

ويخيل إلى أن النكتة المصرية بنت عوامل ثلاثة على وجه الخصوص :

أولها : ما اشتهر به المصريون من أقدم العصور من الذكاء الفطرى وحدة الفؤاد وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، وليس هذا مدحا ، وإنما هو تقرير حقيقة ، وقد يخفى هذا الذكاء من جراء الأمراض الوبيلة التى تستنفد الحيوية وتترك من يعانيها أشبه بالبله أو الأغبياء ، ولكن هذه الأمراض ، على شدة فتكها بالأبدان وامتصاصها لحيويتها ، لم تستطع أن تحجب فطنتهم الطبيعية ، فلا تزال ألسنتهم ، على الرغم منها ، تجرى بالنكتة اللاذعة والسخرية المرة .

وثانيها : ماهم مفطورون عليه من الجلد المدهش ، والقدرة على التشدد والصبر والاحتمال ، ومن أهون الأشياء أن تستطيع أن تهون الأمر على نفسك بنكتة ساخرة ، وأن تهون أمرا منه بلاؤك ومصابك بأن تركبه بالهزل ، وأن ترسم له صورة تغرى بالضحك منه والاستخفاف به . وبذلك تدرك غرضين : تخفيف وقع ما تكابد ، وشرح صدرك ، والضحك مدد قوى للنفس ، ونجدة فى ساعة المحنة ، ومن وسعه أن يضحك وهو يتوجع ، فقد وسعه أن يستل الإبرة الواخزة ، وينزع السهم الواقع ـ والغرض الثانى أنك أخذت ثأرك وشفيت نفسك وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره وتصغير شأنه وإضحاك الناس منه . بل هناك غرض ثالث تدركه بالنكتة ، هو أن من تطلقها عليه يكون قد أخفق ؛ لأنك إذا استطعت أن تقابل عنته وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة ، فكيف يمكن أن يقال إنه قد نالك بمساءة ؟ أو أن ما توهمه مساءة قد بلغ حيث يريد ! .

وثالثها أن المصرى عاش فى ظل حكم استبدادى غاشم آلافا من السنين ، والعسف يورث النفوس مرارة ، ولا يبيت الناس منه إلا على حذر وتقية ، وإذا كان المصريون لم يستطيعوا فى هذه الأدهار الطويلة أن يغيروا الحال تغيرا يمحو

مااستقر فى أعماق نفوسهم . فقد كان ملجؤهم التحرز وإضمار سوء الظن . وإطلاق اللسان . وألفوا أن يدعوا حكامهم وولاة أمورهم يفعلون مايشاءون على أن يقولوا هم فيه مايشاءون . ولست أعرف أمة أخرى ـ وقد أكون مخطئا ـ تبسط ألسنتها فى رجالها ورؤسائها وحكامها ، كما يبسط المصريون ، أو تحرص على حرية « الاغتياب » مثل حرصهم . وأحسب أن « الحاج » براون لم يخطىء حين استخلص فى كتابه « بونابرت فى مصر » من تاريخ الجبرتى أن من أسباب ثورة المصريين مرتين على الجيش الفرنسى الذى دخل مصر بقيادة نابليون ، مافرضته قيادة هذا الجيش على المصريين من قيود على حرية الكلام أو على الأصح حرية « الاغتياب » .

ولعل هذه العوامل التى ذكرتها هى التى جعلت المصرى أميل ـ فى الأغلب والأعم ـ إلى النكتة منه إلى الفكاهة بالمعنى الصحيح ، وأقدر عليها . على أنى قد أكون مخطئا فى تصورى أو تصويرى . ومن ذا الذى لايخطىء ؟ ولكنى أظن أنى على صواب .

جناية الصحافة على الأدب[١]

لا أظننى مسرفاً فى التقدير إذا زعمت أن تسعة أعشار الأدب المصرى تكتب مقالات فى الصحف والمجلات ؛ ولو أردت أن أفرق بين الأديب المصرى والأديب الأوربى بكلمة واحدة ، قلت إن أديبنا يكتب مقالة وأديبهم يكتب كتاباً ؛ فطريقة الكتابة عندنا — فى أغلب الأحيان — هى أن يكتب الأديب مقالة هنا ومقالة هناك ، حتى إذا ما تجمع له مما كتب مقدار يصلح أن يكون كتاباً ، جمعه فى كتاب واختار له اسماً ، يوهم القارىء أنه كتاب ، وهو فى الحق كتاب إذا كانت الوحدة فيما كتب هى وحدة القلم والكاتب ، أما إن جعلت وحدة الكتاب موضوعه ، فليس هو بالكتاب إلا على سبيل المجاز ، والمجاز هنا أساسه أن مجموعة الأوراق قد ضمها غلاف .

هذه حقيقة واقعة ، وليس بالشاق العسير عليك أن تتبين صدقها باستعراض ما أنتجه الأدباء : طه حسين ، أحمد أمين ، العقاد ، المازنى ، توفيق الحكيم ، وغيرهم ، لتعلم أن الكثرة الغالبة مما يخرجون للناس من كتب ، هى مجموعات من مقالات أو فصول . . حتى المسرحية ، هذا اللون الأدبى الذى كان يمكن أن يفلت وينجو ، لم تلبث أن طواها الاتجاه العام ، فإذا هى فى الأعم الأغلب مسرحية ذات فصل واحد ؛ وكذلك القصة عندنا فى معظم الأحيان هى القصة القصيرة التى تنشر فى الصحيفة على دفعة واحدة .

وقد يكون تعليل هذه الظاهرة فى أدبنا ، هو أن أديبنا قصير النفس ، إذا قيس إلى الأديب الأوربى صاحب النفس الطويل ؛ ثم قد يكون هذا النفس القصير فطرة فينا ، ورثناها عن آبائنا مع سمرة اللون وسواد الشعر وكثافة الشفاه ؛

---

(١) بقلم : الدكتور زكى نجيب محمود .

فالأديب العربى منذ أقدم عصوره — فيما يقال — معروف بالتركيز والإيجاز فتكفيه الحكمة الواحدة أو الفصل القصير ، حين لا يكتفى الأديب الأوربى بأقل من قصة طويلة عريضة ، قد تجاوز صفحاتها الألف ، ليحلل فكرة واحدة ، ويخلق لها الأشخاص خلقاً ليلبسوها ويمثلوها فى أفعال وأقوال .

أو قد يكون هذا النفس القصير عند أديبنا ، نتيجة لضعف ثقافته وضيق أفقه ، فليس لديه مايقول عن الفكرة أكثر من ثلاث صفحات أو أربع، فى الوقت الذى يتمكن فيه الأديب الغربى بحكم ثقافته الواسعة العريضة أن يكتب الكتاب الضخم لتحليل الفكرة الواحدة ، فيبرز ظلالها وأضواءها ، ويجعلها كائناً حياً يسعى على قدميه .

ثم جاءت الصحافة عاملا آخر ، قضى على الأدب المصرى قضاءه الأخير ، وبات معه حتماً مقضياً على هذا الأدب أن يظل على صورته الممسوخة الشائهة البتراء ، التى لا تسمح للأديب أن يستقر على أثره الأدبى حيناً من الدهر يكفى لتسويته كائناً كامل الأعضاء ، كما يفعل أدباء الغرب بما ينتجون من آثار .

جاء عامل الصحافة . فقضى على أديبنا أن يكون صحفياً فى إنتاجه ، لا خالقاً متأنياً مبدعاً ، ذلك أن الصحافة استعانت بالأدباء ، فكان لها الفضل على الأدب مرة واحدة ، لكنها كانت جناية على الأدب ألف مرة ، اما فضلها فهو أنها أتاحت لكثير من الأدباء فرصة العيش المتواضع حيناً والمعتدل حيناً ، وأما جنايتها الكبرى فهى أنها صبت الأدباء فى القالب الذى تريد ، فإذا الأدباء فى يدها مأجورون لا يكادون يسطرون من أجل الفن الخالص سطراً واحداً ، إنما يكتب أديبنا ما يصلح للصحف وما يقبله منه رئيس تحرير الصحيفة ، وللصحف ورؤساء تحريرها أساس يحكمون به أبعد ما يكون عن الأساس الذى يرضاه الفن الرفيع ، وإذاً فقد بات أدباؤنا فى واد ، ومقاييس الفن الرفيع فى واد آخر .

كيف يكتب الأديب المصرى اليوم وماذا يكتب ؟ هنا لك صحف يومية أو أسبوعية أو شهرية ، تركت فى أيديها قوة الشراء ، بحيث أصبح محالا أو قريبا من

المحال أن ينافسها منافس تواضعت موارده المالية ؛ وهذه الصحف القوية بمالها هى أيضا واسعة الانتشار ، لأن الأمر هاهنا كالحلقة المفرغة : قوة مالها توسع من انتشارها ، وسعة انتشارها تزيد من مالها . . والأمر عند رؤساء التحرير فى تلك الصحف ، هو كالأمر فى كل بيع أو شراء ؛ فهم كباعة الفاكهة والخضر ، يريدون أن يعرضوا على وجه الصندوق أو على سطح المقطف برتقالتين تخفى وراءهما البرتقال الصغير ، أو كرنبة ضخمة تستوقف الأنظار ؛ فيدق رئيس التحرير التليفون إلى فلان الأديب الكبير صاحب الاسم اللامع ، ويطلب منه مقالا لعدد هذا الأسبوع أو هذا الشهر ؛ والأجر الكبير المعروف خير كفيل للأديب الكبير أن يضعف فيكتب ، ولا عليه حرج ، لأنه بشر كسائر البشر يريد أن يعيش .

فماذا يكتب الأديب عندئذ ؟ إنه لا يكتب ما يمليه عليه فنه ، أو ما كان ينبغى أن يمليه عليه الفن الرفيع ؛ بل يدير فى رأسه نوع المجلة التى طلب إليه أن يكتب مقالة فيها ، فيكتب شيئا يلائمها ويلائم قراءها ، وإذا لم يفعل ، فقد يقبل منه رئيس التحرير مقالة هذه المرة حياء لكنه لن يعود إليه مرة أخرى .

يقول الأديب لنفسه إذا ما هم بالكتابة : إن قراء الصحيفة هم أوساط المثقفين ، الذين لا يطلبون إنشاء رزيناً رصيناً ، ولا يقوون على خلق أدبى رائع ممتاز ، إنهم طراز من البشر يشترى المجلة لتسليته فى الترام أو عند الحلاق ، فلا بد من مراعاة ذلك فى اختيار الموضوع ومعالجته معا ، فينبغى للموضوع أن يكون خفيفاً لطيفاً ، وأن يعالج على نحو مسل ظريف ، وعلى هذا الأساس يكتب الأديب ، فليس هو حراً كل الحرية فى اختيار مايكتبه ، ولا فى الطريقة التى يعالج بها موضوعه ، بل ليس هو حراً كل الحرية فى طول ما يكتبه ، لأنه يكتب ليملأ فراغا طوله كذا سطراً وعرضه كذا نهراً ، إن رئيس التحرير يأمره بما يريد ، وهو يصدع بالأمر راضياً أو كارهاً ، فإذا عرفنا أى الدوافع يحدو رئيس التحرير فى نوع ما يطلبه عرفنا من هو الآمر الحقيقى الآن الذى يستبد بأرباب القلم ! إنهم أنصاف المثقفين وأرباعهم .

ولا تقل إنها الديمقراطية فى الأدب ، وإنه لا عيب فى الديمقراطية بكل صورها ، سياسيها وأدبيها ، لا تقل : ماذا تريد ؟ أتريد الأديب أن يكون مترفعاً يخاطب الطبقة الأرستقراطية فى مالها وثقافتها ؟ لا تقل ذلك لأنى ما أردت شيئا منه ؟ لأن الديمقراطية فى الأدب كما فهمت فى الغرب لم تكن قط شيئاً كهذه الأمساخ التى يضطر أدباؤنا إلى صناعتها والاشتغال بها دون ما قد يستطيعون من آثار خالدة باقية . كان أهم معنى للديمقراطية فى الأدب عند الغرب — فيما أعلم — هو اختيار الأديب أشخاصاً من سواد الشعب يصورهم بأدبه ، فلم يعد شرطا أن يجعل أشخاصه ملوكا وأمراء ، بل أصبحت الخادم الساذجة تصلح أن تكون بطلة لقصة ، يهتم الأديب بتحليلها وتشريحها ، وبهذا جعل عنايته ملاحظة أوساط الناس كيف يعيشون وكيف يشعرون ويفكرون ، لا ليكتب ذلك على النحو الذى ترتضيه الصحافة الأسبوعية أو الشهرية ، بل على الصورة التى يرضاها الفن المتمهل المتأنى الذى يسوى خلقه تسوية كاملة فى كتاب كامل يقصر حيناً ويطول حيناً ، حسب ما تقتضيه أوضاع الفن ، لا حسب ما يأمر به رؤساء التحرير .

إنه من حسن حظنا ـ أبناء هذا الجيل ـ أن أدباءنا قد وجدوا بعض الفراغ فيما مضى ـ لم تشغلهم الصحف عند ئذ كل وقتهم ، لأنها لم تكن ـ فيما يظهر ـ قد تنبهت إلى شراء هذه السلعة الرابحة ، من حسن حظنا أن أدباءنا قد وجدوا فى ماضيهم فراغا أنتجوا لنا فيه قطعا أدبية نعتز بها ، وإن تكن من النوع الذى لا يرتضيه رؤساء التحرير ، وإنى لأتساءل جاداً : ماذا عسى أن يؤول إليه الأمر بعد عشرة أعوام أو عشرين ؟ اذكر لى أديبا واحداً اليوم لم «تستخدمه» الصحافة استخداماً يعود عليها بمئات الجنيهات وألوفها ، ويعود على الأدب الرفيع بالفقر، وكدت أكتب : بالخزى والعار ؟ إنه بعد عشرة أعوام أوعشرين ، لن تجد مقالا واحداً يكتب من أجل الفن الصحيح والأدب الرفيع ، لأن « أشلاء » المجلات الأدبية الباقية فى طريقها إلى الزوال . والباقيات الفاسدات ، لأن العبرة فى الباقيات هى سعة الانتشار وقوة المال ، ولم يعد الأديب الكبير يرضى أن يضيع وقته فيما لا يعود عليه بالكسب ، والكسب مرهون بطاعة رؤساء التحرير . إن الذى يعمل الآن

فى تسيير الأدب المصرى هو قانون تنازع البقاء وبقاء الأفسد ، لا لأن أدباءنا غير قادرين على إنتاج الصالح ، بل لأن الصالح ليس هو ما يأمر به رؤساء تحرير الصحف القوية الغنية ، وأدباؤنا قد باتوا اليوم فى حكم المحررين فى تلك الصحف ، وقل على جودة الإنتاج ألف عفاء .

ومن أنواع التسلية ـ إذا أردت تسلية ـ أن نتعقب الأدباء وهم يتجمعون فى صحيفة بعد صحيفة ، كما ينتقل مركز البيع والشراء فى المدينة من شارع إلى شارع ، كان شارع الموسكى هو مركز الحركة التجارية فى عهد مضى ، ثم انتقل مركز التجارة إلى شارع فؤاد الأول ، وكأنى به اليوم ينتقل إلى شارعى قصر النيل وسليمان باشا ، وهكذا الصحف والأدباء ، ترى مجموعتهم فى هذه الصحيفة مرة ، ثم فى هذه الصحيفة مرة أخرى ، لأن الصحف تتنافس كما تتنافس دكاكين البقالة ، فقد يعن لصحيفة منها أن تضارب زميلاتها بالإكثار من أجور الأدباء الكبار ، فيجتمع لديها هؤلاء ، ثم تعود صحيفة أخرى فتمسك بالزمام ، ويعود الأدباء فيرحلون رحلة جديدة ، وهكذا ، ولسنا نكره بالطبع أن يؤجر الأدباء أعلى الأجور ، إنما الذى نكرهه ونتشاءم له ، أن تكون هذه الأجور ثمنا لطاعة الأدباء ، فلرؤساء التحرير أن يأمروا وعلى الأدباء أن يطيعوا ، كأن الأمر مقاولة وبناء ، فأضع التصميم الذى يعجبنى وأستأجر البناء لينفذ لى ما أريد دون أن يكون له حق الاعتراض ، إذا حدث هذا فلا فن فى بناء ، وكذلك قل لا فن فى الكتابة وفى أى فن آخر .

جناية الصحافة على الأدب جناية كبرى ، لا تعوضها الجنيهات القليلة التى تدفعها لأدبائنا ثمنا بخسا رخيصا ، يموتون بعده فقراء — كما مات المازنى : فأولا تجنت الصحافة على الأدب فجعلته مقالات قصاراً ، ولم تفسح من الوقت لأديبنا أن يتفرغ للكتاب المسهب المطول ، وثانيا جعلت مدار ما يكتب هو ذوق الجمهور القارىء من حيث الصنعة والأداء ومن حيث الموضوع والمعنى ، ولو سارت الحال على هذا النحو عشرين عاما ، فلن تدور عجلات المطابع بكتاب واحد ممتاز يخرجه أديب إنتاجا خالصاً لوجه الفن الرفيع .

فهـــرس

الجزء الأول من كتاب صور من الأدب الحديث